عبد الجليل الغزال، الناجي الوحيد من السجن الصحراء، يتواء على عكازه ويجري جسده المطرب تائماً في الصحراء، ساعياً للوصول إلى قريته الأولى (وادي الدموع). يرافقه كلب السجان الذي أصبح رفيقه وأليفه في هذه التيه.

في لهيب الصحراء، لا يجد عبد الجليل ملجأً غير الذكريات، بكل نداوتها وثقلها وفصولها: ذكريات السجن القريبة وحكايات السجنا، والسجانين، الهجرة القسرية من قريته الأولى، شغفه الأول، احتمالاته من بروت ووجه حبيبته هدى...

بين السجن، والحرية المفتوحة على العدم، وال الماضي بالآلام المرارة، دائرة يحاول عبد الجليل الخروج منها عائداً إلى وجوهه الإنساني.
ملاحظة النسيان

Twitter: @ketab_n
تصميم الغلاف: ماريا شعب
خطوط العناوين: علي عاصي

Twitter: @ketab_n
«إذا ضاقت بك الدنيا، فسير...»

الفروي
بدوت لنفسي فريسة أخطئاها الموت فرأوت عرجه الطويل.

عبد الجليل الغزال

Twitter: @ketab_n
وأتبت بكيس، جمعت فيه ما أمكن حمله من طعام وخبر وتمر.
معلانات لحوم وذذتها في غرف الحرس، تحت الردم. عبَّات ماء من
الصهريج الأزرق، عبَّته في «إمطرات» وهي قَرْب خاصة بالجنود.
يحملونها معهم إلى الجهات أو في المهمات الطويلة الأمد في نواحي
الخلاء.. وضعت رأسى تحت سكر الصهريج المنتفق، وتبحتت
في غسله وفركه. ودَّدت لو أن ماءه يسري إلى داخلي ويفصل أعمق
نفسي الفاحمة.

نفضت رأسى مثل كلب أصابه البلل.
نظرت في المدى الألهى.. امتدت أمامي الصحرااء بجلالها العضبيٍّ.
ارتعشت..

لم تكن لدي قدرة وهمة كافية للمشى. ولكني مشبت، ولا أعرف
أي الجهات أقصد، غرباً أو شرقاً، جنوباً أو شمالاً، لا جهات هنا،
ال الجهات مسحوبة في هذه اللحظة. هي أيضاً مصابة بلاء النهية.
ليس لدي قدرة، ولا تقدير لشيء.
كانت الأمور تتم بمزيج عن التخطيط، فقط، كان شيء غامض في
داخلي يشبه الرغبة في المشي، أو الاندفاع في هذا الخلاء.. أطُلقت من
بقايا طبيعى الرعوى في تلة سليمان، وطن أهلي، الوطن الثاني، بعد شتاتنا من وادي الدموع.
خرجت من فيحة في الجدار، يتدهق منها شلال هائل من الضوء.
وقصصت...
سمعت خلفي نباحًا، كالذي كان ينشىء صمت الليل، في محاولات الهروب التي كانت تُدْرِب للسجناء بغية التخلص من فائضهم، ومن أصابهم المس.
الباح أقلّ إلحاحاً وشراسة، لكنه أخفى، فضاغفت من عزمتي.
شحت روحى برغبة الحياة، استغرقتها من شجرة فائض خضراها، تمابلت في ذاكرتي على مهب الهواء...
فوليت وجهي نحو اللامكان...
قدمي البسيس لا تعنيني، هي علة أو "عالة" عليّ كما يقول، حمل زائد، لا نقط لها على الإطلاق، أجزها خفيف كخريطة بالبية، أو كفص يابس وأتوكا على عكازى.
وعكازى عارضة لباب شلَّه القفص في تلك الليلة، الأرجح باب الحرس. أعرف خشيه من رائحته، أ узн رائحة الخشب.
لا أعرف كيف صارت في بدي، وصارت عكازي، وسُويت قبضتها بشكل يسع لراحة بدي، رفعتها، بنيّة معرفة تقلنها، شحت عزمتي، فانشئت كفارس يستعد لخوض آخر المعارك...
قطعة هزيلة من الخشب عوْضت بعض هزالي!!!
ابتسمت، وقلت: الكُتاب يصرفون جَلْلٌ عمرهم في الاتِّباع على الاستعارة، لتمتين النقص، وآنا استغرقت لجسدي عـكـزاً لتمتينه. العـكار بدل من ضائع. رأقي هذا التشبيه، وعجـبت من حضوره في ياني وأنا في غير حال، خارج المكان والزمان... فتابعـت عـرـجي، مستـهلاً بداية النـية في امتحان قدرائي وتهكمي على هذا المـشروع الفاـشـل، الذي هو آنا: عبد الجليل الغزال.

ثمَّ بعد حين بدأني البناح معاـداً، مـوـهـياً بالمطائـرة والانفـضاض، أعرف هذه الحالة.

صرت أختيـل جسدي المـطـوـب فرـضـة بين محـالتـيـن الـلعـبين فيما لو وهـن عـزمي، أو استسلمت

ضأعتـن من سرعي، ففخلت وشتمت ساقتي، قلت لها كلاماً نابياً.

حقرتها، وحقرت نفسي... تابعت سيري على قدر استطاعتي. ثمّ

خالجي شيء من ألمي.

وافتكرت في أمر بقائي هناـك.

وهناك ماذا سأفعل؟

هناك في سجن شبة ركاب، أضحى مهجوراً، تتصاعد منه أبخرة الموت وتنـت في زنايبي ومتارع أرواح أطياف بشريه.

ماذا سأفعل، لو بقيت هناك؟

أنتظر من؟

من سيأتي، أو يمر في هذا الخراب؟

11
لم تكن سوى سحابات من الدم، أنت من المجهول، وحامت فوق نفسي، وصرت أزّن وأرجح بين احتمال بقائي، وع عدمه، بين مكوثي في سجن لا سجن فيه ولا سجن سواءي، وبين السير في هذا المجهول. أمران متعادلان، في كل منهما أمل شحيب بالنجاة، أو باحتمال أن أ końca
يعرّ علي، أو أنتقى به في هذا العالم المهجور كلياً، والمتروك للنهاة والساني.

هنا، أو هناك، سبأان وسط هذه الصحراء، حيث لا أدري كيف جيء
بي، ومن أي الجهات حملوني قبل سنين، في تلك الشاشة التي لم
أذكر منها سوى صوت محركها الفاجر، وصوت ساقيها الذي كان
يغني أحياناً:

لأمشي لكم بالليل يا عنيفة
يا يايا
هّى، على هّى
 وإن تعبت الرجلين يا عنيفة
يا يايا...

لأمشي ع إيديا...

كنت وأربعة رجال آخرين، هكذا، قدّرت عددهم، من سعالهم
والذين، إذ إننا جميعاً كنا معصوري الأعين، مكتنطي الأيدي والأرجل
بجنزير واحد.

مشينا نهاراً كاملاً. بادلنا عند المساء بآخرين على الحدود.

12

Twitter: @ketab_n
أعرف الحدود من رائحتها، أعرفها من اللهجة، أعرف رائحة بلادي الأولى، وطني الأول، واللهجة أعلى، هي من الأشياء التي لا يمحوها الزمن.

أنشأ كثرة أعرفها من رائحتها، هذه واحدة من خصائصي، أو من مواهب المتوازنة من ثلة سليمان، أول رائحة حفرت في نفسي واستقرت، هي رائحة الجروي بين نهدي مريم، ماتت مريم وقيمت الرائحة. كنت أعرف القادم نحو، من رائحته قبل أن يصل ويفتح باب زنزانتي، وأمطر بين رائحة السجدة ورائحة السجين.

وأعرف رائحة التبديل في الهواء، عندما كانوا يقودونني جرّاً من زنزانتي إلى غرف التجفيف، أعرف الغرف من رائحتها، وأدرك لثلج نوع التعذيب إن كان يذكوري أو آلياً. وعندما كانوا يضعون كيساً في رأسي كنت أعرف أن هذا الكيس كان يحمل بريدًا، أعرفه من رائحة حبر الأختام، أو أنه وضع سابقاً في رأس شبان، أو مصطفى، أو عمار الدليمي، أو هو كيس كان يحتوي على الحبوب، أو الفاكهة...

مرة وضعا في راسي شيئاً، لم أفلح في تمييز رائحته، لكنه صلب بعض الشيء، وصلاته هيئة معرضة للفتنة، أو الكسر.

عرفت لاحقاً أنها قراءة خارية، كان آخر السجن في ساعات سامح يتسلسلى ووضع القطر في روعة، يخطئني من تكون، من قاماتنا.

كان يعرفي دون عناء، لعلاني الفارقة، عرجي.

كان يخطئ، ويسكت أحداً بدل أحد، فالح بدل عامر... ويفقهه

13
صارباً كفاً بكف. كنت أجعل من فقهته، أكثر من صمته الغدير.
العسكر، عسكر يتشابه في كل مكان...
قبل أن يبادلونا على الحدود، في مساء ذلك اليوم، كانت البخسة في مستواها الحضيضي. لقد ذُقت وسمعت أشياء، سأروي عنها إذا ما نجوت من مناهتي هذه، بشدة دقاتها ورخصها.
بعد إتمام عملية المبادلة من صناديق شاحنة إلى أخرى، خفّ منسوب الدنا، بلعمّهم كانوا أكثر سأاماً، أو تلك الجنود الذين رافقونا في الشاحنة إلى السجن الصحراوي. كانت أسنتهم غاية مهلكة، ولكلهم أخف، وإن كانت سئَت خيطاً من الدم من أعنف.
حست وجي في قفص روح، وطاحت غضبي بين أساني. كان قد مضى على هذا التاريخ ربع قرن، خمس وعشرون سنة، يوم خرجت في العبارات من بيروت إلى قبرص، ثم لا أدري كيف حملتني أفنداري إلى هذا المصير.
هو الشوق ربما، أو خصال الحين.
هو الشوق إلى هدى، أعادني إلى بيروت، لكنه لم يستطيع أن يخيبني مثلما خبأني هدى في أول ليلة، وضمني إلى روحها، وأنا في اشتغالات عادية من الشوق. لم يستطيع أن يفعل شيئاً، ولم تستطع هدى، حين جاؤوا وأطرقوا الباب، وحملوني كشاة كسيحة، متدهوراً على الدرج، إلى صندوق السيارة، أطبقوا على ومضوا، لأمضى عمري في هذا السجن اللعين، هذا وسط هذا الخلاء الذي أجرّ فيه، وعليه سايقي.
وترك خلفها، زيحاً أو ثلماً يشبه حفرة السنين في عبورها الفتاك. حفرة غائرة في النفس كظلم التجاعيد، مضافةً إليه ألم لا شفاء منه، خمس وعشرون سنة، أبطأ بكثير من تعداد أيامها...
لا شيء يبدل هنا. والذي يتحرك سكونية الزمن ويغير في المكان،
هو صدف كصدفة نجاتي، وسعي وعبوري فيما... لا شيء يبدل
هنا سوى ما تفعله الريح في إعادة تاليف الكتب، تمحو وتوَّف، مثلما
محوت وكتب قصائد الهوى لهدي، في وادي أبو جميل في بروت
في تلك الأيام...
ولا أحظى أنه بدأت تتنبأ بِلحظات تأملية خاطفة، تسري في من الذي
أنا فيه. كمسائلة تفكيري بلعبة الزمن، أو بفعل التشبيه الذي قمت به
بين الكتابة والمحو، وفعل النسائم في الكتب المتناثر أمامي كحارة
ضحوية.
وافتكرت بزمليتي الذين تركتهم خلفي. ما كان يعبعي فعل شيء
لإنقاذهم، فتركتهم لموتهم ومشيت، هم أموات لا محال. وإن لم يزال
بعضهم ينظر بينين داهمين نحو الضوء الدالف من الكوا التي أحدثها
القصر في الجدران، بِذا حين خرجت الشمس من مستقرها الليلي،
شلالات دافئة من الضوء والدخان، أحزمة هائلة تسبكت دفعة واحدة،
لكان الله سلط هذه الأضواء، لتنفق ساحة الجريمة، وأعداد
القتلى...

17

Twitter: @ketab_n
رأيتهم، رأيتهم كلّهم، لم يبق منهم أحد حياً. شيبان الحمصي، لا أعرف إن كان هذا اسمه الحقيقي. عندما شاهدته ألمم بعض معلبات الطعام، نظر إليّ بعينين كلهما رجاء أن أفعل شيئاً، قلت له ماذا يوسع ميتاً أن يفعل لمبته با شيبان؟ رفع يده قليلًا وتوّح بها، ثم ارتمست من تلقاتها على أرض الممر، وشيبان لا يدري ما هي النهبة التي جنت عليه بالمؤيد في السجن الصحراوي. هو راع كما كان يروي لي، لا علاقة له بشيء، كان يرعي غنه في خلوات فريته، عندما دقت ساعة النحس كما يقول، وجاء حسان ابن خالته ليودعه مع كتب ورسائل، أمانة يسعيدها بعد عودته من التجنيد. وشيبان لا يكتب ولا يقرأ، ولا يعرف ماذا سيفعل بهذه الأمانة، وابن سيديتها، إلى أن فظن إلى مخبأ لها في الحظيرة... وفي واحدة من تلك الليلات التي كان يبحث فيها أمر الدولة عن «المناويين والخونة»، عرموه في حظيرة شيبان، على تلك الكتب والرسائل، وكانت كافية في نظرهم لتجعله واحداً من «المنظرين الكبار» ومن المحطمين القادة في حركة انقلاب يحضّر لها، «منظّر متفحّق في هيئة راع أمي»، هكذا جاء في محضر المحقق. كثيراً ما كنت آلمرازه عندما يصعد مراج السام إلى مستوى الموحي بالانتحار، وأردد أمامه هذه النهمة. كان شيبان يضحّك ويشتم ابن خالته الذي اختفت آثاره... «منظّر خطر متفحّق في هيئة راع أمي»...

تركتهم جميعاً، شيبان، وعذنان الأسد، ومصطفى شيلي و...
وطيف امرأة، مصلوبة على النافذة، لا أدرى ماذا حل بها بعد تلك الليلة البعيدة التي جاوروا بي خلالها إلى غرفة مظلمة، معصوب العينين كالعادة، ولم يكن من داعٍ لكني يصيح عيني، في مثل هذه العتمة الحالكة، وعندما انتزعوا العصبة عن عيني، لم أر، فظنت أنني أصبت بالعماء، وصرخت لألم اجتاحت عمودي الفقري، هو وخز حروبة شديدة الفتك، وجدتمي جانباً على ركبتي. ومع صراحي أشعض الضوء، رأيت امرأة مبتلبة على حديد النافذة لكأنها مصلوبة، رأسها مائل على كتفها اليسرى، وشعرها منهذغ عطى نصف وجهها، فستانها المزهر مزروع عند صدرها، حافذة، خبط رفع من الدم على ساقها البيضاء، لكأنها ميتة...

تعرفها؟ تعرف هذه القحبة، وقع الصوت على راسي، (فجاً). تقدم منها، شاق شعرها عن وجهها، تعرفها؟... ودارت الأرض دورات عديدة... لم أعرف ما حدث في تلك الليلة.

عندما صارحب وجذتني عارياً، وبالقرب مني حطام تلك السيدة، عرفت لاحقاً أنها هيفاء، زوجة السجين فرحان داود. ومن لا يعرف حكاية فرحان وقصصته:

من أين أنت ما تخون؟
ولو كنت خوان؟
صارت على كل لسان...

تخيل، قال لي مصطفى شهاب إن أولئك الأوغاد جاوروا بها إلى السجن، وعزواها أمام زوجها و...
لم يكن لي الحكاية في ذلك اليوم. لقد أصبح بواحة من نوباته.
في مناجاة الله أن يتدخل لوقف هذه الفضيحة.
هل تمنحنا إيماننا بُك يا الله؟ ويصرخ، فيرجع السجن... هل تمنحنا أبوب في حطام هذه السيدة؟... 
لقد أكمل لي حكاية فرحان داود لاحقاً. وعرفت أنى واحد من الذين جيء بهم في تلك الليلة، ليتناوبوا على هتكها أمام زوجها...
كل ما فعلته، وكل ما أذكره هو أنني صرخت في ذلك الحين،
الذي عزاني أمامها:
كيف نحن أن يأكل لحم ميت؟ هل تريدني أن أكل لحمي يا خلق الله... ودخلت في ملكوت من الغياب، بعد أن فتكت الحرية في عمودي الفقري، وتوقعت نحو دورة الظهر، فشلت وتعمتي، ثم حين صحت وحاولت الهروب، عرفت أن ساقتي سُلقت أيضاً، وصرت أجراها خلفي كما أبامي...
قال مصطفى شلبي، سأكمل لك الحكاية لاحقاً، الآن دعني في عناني لخالق: 
مر على تلك الليلة أكثر من عشرين سنة. لكنها تحولت إلى كابوس دائم ميطاردي حتى في صحتي، لم يقارني تلك الصورة على الإطلاق، وحين خرجت نحو عراقي الثاني في هذه الصحراء، خرجت هيئة معي مصلوبة على شبكة عيني...
وقي حطام رفاقي هناك.
هل كان عليّ أن أدفع زملائي؟ لم تأتي هذه الفكرة عندما كنت
أتمنى من أجل الحراس أن يشفوا بقائي حياً، حتى وإنني لم
أتطلع لهذا الفعل أو لمسار ساندته بعد قليل، وعندما حملت كسي
وشاهدت شبابي في نزوة الأخير، لم أكن أتوقع الخروج من تلك الفتحة
في الجدار، كان بإمكانني الخروج من الباب المفتوح إلى البداية، لكنني
وجدتها متحركة أمامي، شدّدت إليها شلالة الضوء والدخان، كحيل من
الجاذبية شدّنت إلى الخارج، ووجدت نفسني في الغارة الكاملة.
سحبة من دخان في الأفق نوحي بفصول ما. وفي المدى المنتاح
أمامي حطام الرياح، وعلى أسلاك السور تندلى أشجار آدمية وينبغي متعة.
وهو سماوي في الأفق، أو أنني هكذا رأيت...
لكن ما حدث تمّ في غيابي، وصحت على هذا الخراب الهائل
والموت... وعندما دخلت في الضوء ومشيت، كنت لا أدرك إلى أين،
لكأنى عبرت على فرصة للهروب.
هكذا، كان كل شيء يغفل محتوى، حتى تلك المساحة التي طغت بها
بدأت مستحيلة على كائن آخر مثلي، النباح وحده كان يعيد إلى بوصلة
وعيني وقدرت على التحليل... وينبغي لي الشاشتي...
صرت أمشي، كأنني أمشي في منام... أمامي تراكي الصحراء.
ثم الثفف ورائي، فبان السنجر الصحراوي جامعاً مثل كائن أسطوري يلفظ أنفاسه، للمرة الأولى أراه بهذا الوضوح، تتصبغ منه سحابات من قبانيا دخان، مصحوية بصورت انهارات وتصدع... وأني لم أتبين مصدره في البدء.
صرت أمشي قليلاً وعلى مهل وأقف، لألفتت خلفي، لا أدرى لماذا أقف وألفتت خلفي لم يبق هناك من أحد أخافه، والنباح الذي بدا لي شرسة، صار كسولاً مقتطعاً موجياً بالفشل والانكسار...
و كنت متيقاً أن أحداً لم ينجح، ونجلاني أجموجة، كنت لوقت طويل متشكلكاً فيها، أنققد جسدي، انحسني، وأختقل كلاماً. أحدث نفسي كي أسمع صوتي لأبهن لها أي موجود، رغم كل ذلك لم أناكد، وظنت أنني جئت، ولكن أعرف أن المجنون لا يعرف أنه مجنون،
أعرف هذا، كيف أيضاً أعرفه لفلي؟
إذاً، وفوفي وتلفتي إلى حيث كنت لم يكن نتيجة الخوف من افتتاح أمري أو أمر هروبي، فان لم أهر، للمرة الأولى منذ سنين، كنت حراً أكثر مما ينبغي، حرًا وحيدًا أكثر مما ينبغي، ولكن خياراتي شبه معدومة، أو عديمة.
كنت حراً بين خيارات، إن أبقى ميتاً أو أمشي ميتاً. لا ثالث لهما، ولبس من أحد خيارات بين هذا أو ذلك.
بالطبع اختارت أن أمشي وأموت، وهذا من الطبيعي، فعل قمت به...
بالفزيّة، لا بالعقل، كان عقلي معطلاً تقريباً، حتى لو استمتعت بعض الأفعال كأنذكر مثلًا أو التفكير... افتحت بنوافذ من الأمور عندما نزح لي شبان بيده، علمت لاحقاً أنه كان يوعدي. لم أقترب منه، كنت أعلم فورٍ جثث زملائي كحيوان مصاب بالهلع، ولكن، كي أكون صادقاً، لم أبالغ عندما رأيت «الضبع»، و«الضعيف» هو جلادي المفضل» في سنوات التعرض الأولى، كان بصفعة واحدة من بيوت التي تشبه المذارى، يطرحي أرضاً ويغمي عليّ. وعندما كان يبدأ بالتعذيب يصاب بنوبة من الهياج المصحوب بالضحك والبكاء معاً، فلا أحد يعرف إن كان يضحك أو يبكى. عندما شاهدت عمداً كحيوان نافق على سفرة الدرج المؤدية إلى شرفة مطلة على باحة السجن، بدا لي كاتباً هشّاً، فافقداً لكل طفحيه، تأملته لوقت طويل. كان مخاض العينين الوحيد من بين الذين شاهدتهم، كان مغمض العينين، توحي ملامحه بآلام أعتصره، كان يطوق عنقه بديه اليسرى، بدا لي نجماً لا أهل له، وكأنني شعرت نحوه شيء من الشفقة، والنسامح...

صرت أمسي قليلاً وعلى مهل. أقف. وألفت وراي، السجن يبتعد وأنا أبتعد، ولا أرى لماذا افتقرت بمساحة الشوق، خيط نخيل منحزن لف عقني، وأخرى من الحنين شذذني إلى الوراء، ففعت وصارت في أمري من اختلاط هذه المشاعر.

ثم بدأت أفتح نوافذ عقلي، حتى أقول: قد يكون الحنين لما كنته

23

Twitter: @ketab_n
أمراً طبيعياً، أمام هذا المجهول الذي أسعى إليه وحيداً، بساق واحدة،
ونصف روح، ونصف عقل ونصف جسد...
ثم قلت للفسي، هذا تحليل خرائي، واستنستي قدرتي على
التهكم وقلت: يا صبي لم تشعر بالحنين للمكان نفسه، بل للذين ماتوا,
للوجود الذي تركتهم خلف الجدران، تضيئها أحزما من أشعة الشمس
المشيئية بالغبار والدخان، تنفذ، وتساقط من الكووى، والنفسخات في
السقف وفي الجدران...
وعندما صرت في مطرح، سأنحدر منه نحو الغياب، استوقفتي
الرغبة مرة أخرى في إلغاء نظرة أخيرة على سجني. ثم كشفت عندما
أحسست ذلك المكان خاصتي، سجين!!؟!! فطبع هذا الأمر. استدرت
كمسكري سلمي النظرة الأخيرة على تعود رقاقه، جررت ساقي بيدٍ
لتأخذ مكانها المتوازي مع اليمنى، ورميت بصري نحو غابتها طويلة...
تأملته كأنها تودع بيت أهله، أو منزلاً أقام به سوف يفارقه إلى الأبد...
بعداً كان يلوح لي خلف الغبار الصحراوي، تزّر منه خيوط دخان
تنبعث في الفضاء، أما الأنين الذي بقيت أسمعه، فليس سوى صدى
تشرّن في رأسي وراقصي لسنوات آخر طوال...
شاهدت أمامي، كرة من العشب الصحراوي يتقاذفها هوب الشمال، أخذني تدحريها، تماهيت معها وتتدرج شيء مني خلفها... ثم عقدت العزم على النيه وأصلحت...
أما النباح الذي كان يرحي بالمطردة والانقضاض، فتحول إلى عواء، لكن مصدره ليس بعيد بالعمق، الذي أصبح عليه السجن، لم يين منه سوى برج المراقبة المالي، هذا آخر ما شاهده منه، عندما امتدت الصحراة أمامي بجلالها العدمي.
كان النباح قريبًا من المحيط الذي أنا فيه، كنت أخف هذا النوع من الكلاب أكثر من أي كائن آخر. وربما اعتراضي على واحدة من محاولات الهروب التي دُبرت مرة، ناتج عن خوف من شريعة هذه الكائنات التي رأيتها في سن عمري الأولي، تنهش جسد أخي في نهر صحراوي كالذي أنا فيه... عندما جرّوه إلى قفص أعدّ خصيصًا للاحتفال "يوم النصر".
بعد حين وشوظ قطعته في المسافة، صار النباح أقرب إلى الرجاء...
نباح تزدادي، إذا صح هذا الوصف، لكان هذا الكائن مصاب، أو براغ لينقض عليه، هذه الترجيحات جعلتني أفكر بسهل النجاة منه،

25
واليس أمامي سوى هذه الصحراء. قدمي اليسرى لا تسعفي. وساحلي
هذه العارضة التي اتتاتها من باب الحرس.
حذرًا تابعت سيري، أجر قدمي خلفي كعصف يابس. حملي
يضاعف من عرجي، وعطني بدأ يتحول إلى عب، عندما يعجز عن
اجتراك الحلول، وهل من حلول؟
أمشى حذراً، والصوت دائماً على المسافة نفسها لم يبتعد، لم
يقترب، بل كان يوحي شيئاً فشيئاً بالاستجابة والخوضوع. نباح يشبه
العواء، عواء جريح، بدأ الأمر مفعناً في البداية، ثم خرّ فوضوي على
معرفة هذا الكائن، كلب أم ذئب، أم هو ذلك الوعد أحد السجانين
الذي كان يهيج الكلاب نباحها، ويدخّل في حالة كلب مسعود...
على كل حال، كنت غير مبال كثيراً، بما سأصير عليه. لم تكوّن
عندي خطة واضحة، ولم أضع هدفاً أكيداً أمامي، إذ إن كنت شبه
خاض عن أحاسيس، وإن كنت أعتم إلى الشيء، وحُدّت تحمل على
الحسرات، وتدور تذكارتي باللعبة، فهناك شيء عميق في نسيغ أثلف،
قد يكون الرغبة في الحياة التي سحبت بها روحي حين شعرت بالذعر،
فالباح الممطر، هو تهديد صريح للكشاف، هو تهيئة لخوف من
الألم، ولذا كتبت التي حفظت صورة أني، داخل فقص تشهّد الكلاب
الممطرة... صورة لا يمحوها إلا الموت... وقلت:
... الإنسان إنسان، إن للألفة وإن للروح، وتراني ألفت
هذا المسار في وحشة ماتهية، خارجاً من السجن الصحراوي بفعل
يرادتي، لم يبق هناك من سجين ولا من سجان... أستطيع أن أكون الإنسان في هذا العالم، الآن، رغم وحدتي، وأنيست وحشتي وشطحي، وتابعت عرقي في الصحرا، وشعرت شعوراً خاطفاً بشيء من الاعتزاز برجاحة عقلي في ميزان الصحرا...
هي نعمة الله. هكذا قلت. كنت أضحك في سرّي على حالي، على اختلاط مشاعري وتناقضها.
أماي، أو بالقرب مني، كنت أشاهد أحياناً خرقاً ممزقة على حافة البلاد. قسم منها مطمور في الرمل. قربة كاذبتي أحملها نخراً الوقت، يتفجّر فيها الهواء، فيخرج من فوهة عمقها صغير رخيم، كنتي الرعاة، يبدو لي أحياناً فخراً فيجعل قلبي... بقانا عظماً لم أقدر انتُكرّت
تخص إنساناً أو حيواناً، فهي أيضاً على حافة التحول إلى ريم.
خصائص شعر مشابكة مع شوك وعشب باس، حولها تقاذف الهواء إلى كرة يتسلى بها الهوب، وتلخصها عين الله يحيده. أشياء تترك في نفسي أو تتزاب منسوب الوحشة والربم، وتزيد نقاً على حملي... تئفّق وراي وتطيرها الرمال، ربما، لتعقّوها في الهوب المعاكس.
كان أناجدها وأناهما، وسرقة كتاب مرئي على دفتي تقلبصفحاته أصابع كان غير مرن، لكانه يبحث عن الصفحة التي سبتتبع بعدها الحكايّة، أقرب منها. لم أبتين كلاماً. قلت: إنها ممحاة الزمان.

27

Twitter: @ketab_n
 كنت أنظر إلى السماء، لا أرى شيئاً سوى احتمالات تلوح في العاصفة، لغيم عالٍ يشتد عرججي.
ومن جديد أسمع فحشاً، أتخيل تلك الأفاعي التي تتمبل في الرمل، ربما هي «القربة»، تعرف لحن العزلة.
مر يوم كامل ورايلي، مشيت مع بزوغ شمسه التي لم أبتغيها أو أتمنى موضعها في السماء، إلى أن لاحظت باهتة خلف كثافة الغبار، في الأفق على غروب ذلك اليوم. في تلك اللحظة أدركت أنني كنت أسير نحو الغرب، وشعرت بشيء من الرضا، دون العثور على بواطئه.

بدأ الليل يمحو الجهات ملهمًا علي، كنت على لحظة الغرق، أرى الريح تشرف من أجنحة الكتبان رمالًا، وتثيرها غبارًا ذهبًا على قرص المغيب، قبل أن تظهر أمامي شجرة السدر!!

يا الله...

اعترتي قشعريرة حين رأيت تلك الشجرة العملاقة في هذا المدى، في هذا الرمال، لكان يبدأ غير مرئية حملتها من غابة قصبة وغسستها للجو بكل جلالها الأخضر الرمادي، بكل بهائها ووحدتها. هكذا ظهرت أمامي، دفعة واحدة، إذ إنني لم ألحظها من بعيد، أو أن كثافة الغبار حجبتها عني، أو لهوت بمشهد الكتبان التي تسفقها الريح وترمي ذرات رمالها في عين قرص الشمس الشاحب على قلوبه الآخر.

حتى إنني لم أقدر، أو أفكر باحتمال وجود شجر وسط هذه الصحراوات.

29
وقفت كعلامة النهاء، أرجعت كنتي من كيمي ومأتي، ثم احتفنت بخشوع أمام جلال هذه الشجرة المقدسة...
جفوت مباركًا انتفاقيا من الملح والتراب.
أرجى الليل كامل سدله... ثم دوّى الصمت، وعوت الأبدية عواءها المرير...
تمدنت على ظهري، طفقت متواصل عظامي، شمت هزالي وعاهتي... أسدنت رأسى إلى جذعها.
شفمت رائحة غابة بلادي.
وهبت علي بعض الأشواق... أضاء القمر جسد كنتب على مرمي عيني، فعمّ على بالي الغناء... سخرت من شطحاتي، دون أن أفعّلها فهي مسلتني، أو هي معين أصلب من عنازي... فعتبت، ورجحت انحرافي نحو هاوية الجنون، بعد انتهائي من موال بلدي:
إذا دهرك رماك وهده جليك
ولا أهل لك لا خي لك
اركب جناح الليل خيلك
ولا تخاف المنايا ولا تهاب... إلخ
هذا كلام «برلميط»، و«برلميط» في قاموسي الشخصي، أدنى مستوى من تأبه.
ثم رندحت قليلًا من قصة فرحان داود: مين أملك ما تخون ولو كنت خزائن، ولهذه حكاية أخرى.

30

Twitter: @ketab_n
أظن أن ما قمت به هو نوع من عوارض الخوف، أو هو منازلة فاشلة غير متكافئة، مع خصم شديد الغموض والامتداد والصمت...

هو الصحراء.

وكت، أو بالأصح، صرت أستأنس بتحليلتي، لتلك النوبات والعوارض التي تتناثي... كالحيتان، الشرق، التذكّر، الغانا، رغبة العيش... لعلّ شجرة السدر أرخت عليّ طامثة خضراء.

أيضاً هنات نفسي على هذه الاستخدامات الوصفية، قبل أن أشعر بالجوع. تناولت من كيسٍ عبراً وحبات نهر، مضغت بلذة أقل من مصطغنة. شربت من مانيٍ، نساقطت قطرات منه على صديري.

أنعشت پاسی، واعضوءُ تراب صديري.

مع بداية الليل بدأت عاصفة الغبار بالانحسار، إلى أن بان القمر بكامل صفائه، وأضاء إناث الكثبان، وراء النجوم في مهرجانها الكوني... حضرتى الوحشة بكل ضراوتها، فانكششت، ونجمت. حاولت أن أهوى ببعض النجوم الأكبر لمعانى وجمالاً، كما فعلاً في سنوات عمري الأولى على سطح بيت أهلي، هي محاولة تتحسس شروط عزتي، ومقاومة متوافقة مع الخوف. عشتُ أو ثلاثون وأخطئ وأعيد... يترافق لمعانى أكثر كلما زاد إصراري في التحقيق، وكان يحمى من رأسى حساباتى كلها.

شجب ونبذ فنقلت العتبة وتلاشي...

هذّني التعب والتحدي، ثم أخذني ملاك النوم...

31
عادة لا أذكر أحلامي، حتى لو حلمت، لم تكن أحلاماً ذات شأن عظيم و précédent أن أقصيها، أو فيها مقدار من الغرابة، يقلق صحتي، فما الذي أغرب مما كنت وما صرعت عليه، لكي رأيت أنى مصاب بالعمر، ويقودني كلب في مدينة بيروت، تحديداً في ساحة البرج، يصعد بني تجاه وادي أبو جميل، يدخلني المنية الذي كنت أسكنه، وكنت أتساءل في منامي، كيف لي أن لا أبصر وأبصري وأتمتع من مشاهدي للتفاصيل، صعد بني درج البناء، التقى بهدى جارتي وحبتي، عانقتني طويلًا على سفرة الدرج، تماماً في المكان الذي تعاوننا فيه في المرة الأولى، في ليل من ليالي بيروت زمن الحرب. وعندما اكتشفت أنى مصاب بالعمر، صرخت فانقض الكلب عليها... خَوَلتِ أن آلمه، لكنه جزئي بعنف فسقطت عن السفرة إلى قاع سحيق. استفخت مذعوراً، طبيعي الحال، لا أدرى أين أنا، كان جسدي ينفث ونفسي مضطرباً. لاحظ أغلظ من شجرة السدر فوق وانت زرقة الفجر وبدايات الصبح، النّفت حولي، شعرت بأنفس كائن حي، قريب مني، اختلطت علي صحتي بنومي... تفقت كيسي، وعلى مهل النّفت نحو مصدر النفس...
رأيته...

واحد من تلك الكلاب، كلاب السجن المدرية على الافتراس، كان ممداً على بعد أمطار قليلة مني، ينظر إلى بعينين حزينتين يغضبهما ويفتحهما ببطء، واستسلام، ليس فيما ذلك الشرر الذي أعهدها. هكذا صار ينظر إلي بفجاف، أو لأقل نظرة تستجدى الغفران، فيهما شيء من الندم، ثم أصدر صوتًا خافتًا، ممؤثرًا، فعلت لنفسها هذه الكلاب مخادة، كما ذلك الجلاد اللغوي، الذي خذع بعض السجناء بالهروب ذات ليلة، فتح لهم باب السجن على ليل الصحراء، ثم أطلق خلفهم بعد حين، هذه الكلاب التي حوّلت أجسادهم إلى أشلاء... وللتو ذكروا بقايا هذه الأشلاء في طريق، خلائل شعر آدمية، تقاذاها الريح، ملاقيس مقطعة، خرق بالبلا، بقايا أطراف... وكتب سماوية كان يجعلها بعض السجناء الذين أصيبوا بنوبات إيمان حادة، وصرفوا سنواتهم في حفظ الآيات، وفي الصلاة... معظمهم كانوا محذدين، منهم مصطفى شلي الذي كان ينهال بالشتائم على كل سجين يراه يصلي، كان يقول لهم، "عم تضيّعوا وقتكم بالعبادة، شغروا عليهم يا غنم.. كيف ممكن يكون مؤمن بنفس الإله الضحية والجلاد؟ هذا "الضبع" (الذي هو جلادي)، مؤمن، عندما ينهار بعد مسيرة على الرأس، يلمع الهواء من الوجه، أو جدًا بشيام، يتصلي من باب الاحتياط، هذي نظرية جديدة يا حقير!! كيف ممكن نفس الإله يقبل واحد من عبده يدخلو يقفها قضية مكسورة؟ أعد بتفرج على صريخو...".

34

Twitter: @ketab_n
كانت تصيب مصطفى شباب نوبات هysterية، عندما يسمع صراخ
ضحية جديدة تمرّن بها جلاد غزّ... يضرب رأسه بالجدار ويصرخ
على الله: إن كنت موجوداً تدخل، وخلصنا من هالجحيم... ويرجع
السجن من صراخه.

بعد مور ستين... على مصطفى، طلب من إدارة السجن أن تزوده
بالكتب المقدسة للأديان جميعاً، بما فيها الكتب التي وضعها البشر،
كملاحي الأذينة وجلجامش والإلياذة، وتمفرغ لقراءة النصوص
والتأمل. صار أقرب إلى ناسك مسنّ بلحيسه، وهزائه وهندامه الذي هو
مجموعة من خرق باليه كان يلف بها جسده. انقطع عن الكلام إلا
الضروري منه. هو أقدم سجين في السجن الصحراوي، صاروا يندونه
بالسجن المعمر، وشيخ السجن، تخطى السبعين، وصار الوحيد الذي
يسمح له بأن يتجول حيث يشاء، حتى خارج السجن، وبلا العودة،
ولبلا حكایة أخرى، لكنه نادراً ما ترك زاويته التي تكدست فيها
الكتب... كان يشترط إعارتها بحفظها غياباً، مهما كان نوعها.

عندما شاهدت مصطفى في ذلك الصباح مكروراً، مجمعاً على نفسه
كعمري، وفي بيده كتاب لم أبتين عنوانه، رأسه يتوسّد أرضيّاً لرحلة وعيه
تحديقان في القراءة، لا أعرف لماذا نادى بأن أرى وجهي في مرآةً
لا مرآة في السجن سوى في غرفة أمر السجن، ذهبته لأنبين ملامح
وجهي، كانت مشتقة ومحضلة.
رأت عشرين وجهًا لي، ولم أر وجهي.

30

Twitter: @ketab_n
هذه الكلاب مخادعة، تدربت للغاية واحدة: مطاردة الهازي.

لكن أنا لست هناك!! تظاهرت بالنوم، قبضت جيداً على عكاز، عارضة باب أمور السجن، من خشب البلوط، عرفتها من رائحتها، وتحستت لانقضاضه المفاجئ، فعلت كما فعل التعلم الذي تظاهر بالموت، عندما أصبح تحت سيطرة الراعي مهشراً في زاوية القن وفي فمه فرح دجاج. كان يفتح عيني واحدة نصف فتحة، ليقرأ ردود فعل الراعي، لكن الراعي كان أكثر دهاءاً منه، ربطه بحبل وجره إلى موقد النار، فانتفض التعلم عندما شعر بخطر الاحترق!!

عندما استمتعت، لا أعرف كيف أنت علي باليا هذه الحكاية، في تلك اللحظة، ورجعت ذلك إلى إحدى تحسين في ذاكرتي البعيدة... ذاكرتي الرعوية، المهم تظاهرت بالنوم، واستعادت للدفاع عن نفسي بكل ما بقي بي من عزم. صررت أفتح عيني اليمنى نصف فتحة، وأراقبه، لكنه بقي هكذا محايداً، مدفوناً، مستسلماً، ينظر إلي بعينين تظلالان الود، والرآفة والسماح، هكذا كنت أرى، أو في حقيقة الأمر، هكذا كنت

أتمنى؟

يا إليهي، هل يعقل أن يتحول الذئب إلى نعجة؟

37
صرت أراقبه بتمعن، وأمتنع ترجيحاتي في عيني، وفي حركات ذيله.
هل ينادى، ويتظاهر بالعجز، وبالتهديد؟ أم هو عاد إلى طعمه، يريدني صالحًا جديدًا له؟ من ماهما بحاجة إلى الآخر؟ هل هي حاجتي إليه جعلتي أرجح ذلك؟ هل حاجته إلى جعلته على هذا النحو؟
وجعلت أفكارني توقعاته نحو هذا الكائن الذي، في كل أحواله، هو أقدر متي وأقوى، يستطيع الانفصال عنني في أية لحظة، ثم لو أراد ذاتي لكان عاجلني في نومي، وجريني من ساقتي إلى حيث ينبغي أن يعيد بعض أشلائي. هو هكذا ذرب، وهذه هي وظيفته.
كلاب قاتلة.
 كنت أراها في أفاصيها الحديدية وحوشة كاسرة، نباحها زين، وأراها تكشر عن مخالبها التي لو غرستها في جمجمتي لطحنتها عن بكرة أبيها.
كان ذلك نوعًا متقدمًا من فنون القتل، كانوا يتخلصون من الفائض في الأرواح البشرية، يفتح باب السجن ليلاً، كان السجانون يختبئون على السطح، ويبحون لبعض المساجين بإمكانية الهروب، عبر نوبة التفوق الليلي، يرتدي السجان لباس السجن، ويشبع في الزنازين أن عملية هرب ذرت بعان، بالتواغط مع الحراس الذين أبقوا الكلاب حبيسة الأفئدة، وفتحوا باب السجن.
تذكرت واحدة من تلك الليالي، كنت واحدًا من بين أكثر من
مئة سجين، تجمعنا في الممرات، ثم راحنا نعبر البوابات واحدة تلو الأخرى، كلها كانت مشغولة، بحيث لا شيء يصدر صوتاً، صريراً أو كرعة، بتبة إلى عملية من هذا النوع. حفاة كنا وشبه عراة، كي يخف حملنا.

تقدمنا على رؤوس الأصابع نحو البوابة الرئيسية، أضواء الكشافات في برج المراقبة تقوم بأدائها الطبيعي.

بدأت الحكاية في حدود منتصف الليل. خطوات مشبوهة تدق الممرات وتقترب من زنزانتي، ثم يدور المفتاح في القفل كمكسيك يفتح جرحاً في باب صدري، فتح الباب، اقترب وقع العمال من رأسي. لا أرى شيئاً! لكنني شمت رائحته. رائحة رجل أعرفه، رائحة قديمة...

خفق قليباً.

انهض. نهضت. ثم أضاف بصوت أجهله، لا تخف، سوف نهرب، لقد ذكر الأمر. لم أصدق ما أسمعه، وأرايني جسدي حين دنا مني مكرراً: انبه لا تفسح أمراً، فقلب لى: لا أريد الهروب. ظننت نفخاً يثير لي ليتمتعوا رغبي، وأنا هذا الأمر هو أحد الأساليب التي يتبغونها، لمعرفة ما يدور في رؤوسنا من أفكار. لكن الصوت بدا أليفاً وريحياً وعلى قدر من الرجاء، يلح عليّ كي أتبعه.

ففعلت.

أصبحت أفكاري مشوهة، وتعطلت قدرتي على التوقع. تبعته.

39
وجدت نفسي في طابور بشرى، تلامذة أجسامنا في عتمة حالكة
في ممر طويل، كان يبقى مضاءاً في العادة. وعندما وصلت إلى الباب
الرئيسي تشققت هواء الليل، هواء الصحراة جافاً باردًا، دخل رئي، خفيفًا
مر على جروحي، فشعرت بخدر جميل. وبانت السماء على قدر من
الصفاء، ذكرتني ليل بلادي البعيدة، يوم كنت أتمدد على ظهري فوق
سطح دار أهلي وأحاول أن أحصي النجوم.

بانت السماء على هذا القدر الهائل من الصفاء، وبانت الصحراة
تحت عباءة الليل، ضوء الكشافات يضيقها ثم يرخبها. صار المساجين
يفرعون واحداً ثلو الآخر، يراوحون الضوء، صمت مطبق تجرحه
أنفاسهم وهيسين أقدامهم على الرمل، كان الضوء يفضح أجسادهم
الناحلة، الزواحف أحياناً ككائنات صحراوية متقرضة. صاروا يتعدون
في الليل، وبقيت وافقاً كجسد شد بحبل من طرفين متعاكسين بقوة
متعادلة. كانت رغبي في الفرار واللحاق بهم، توازي رغبي في العودة
إلى زنزانتي والاحتياء والنوم، والانفصال عن وعي.

فجأة، لا أدري من أين جاءت تلك اليد التي جرتني من ساقتي في
الممر الطويل الذي أضيء دفعة واحدة. صار راسى يرتفع بالجدران
ثم سمعت أزرع الرصاص ونباح الكلاب، واستعفافاه مرتقت صمت
ذلك الليل، ودخلت عميقاً في راسي، واستقرت على شكل أبين.

... وطلت ميوهتي...
مرة أخرى دخلت في غيوبتك مسالفة.
كان ذلك في بدايات مراحل التحقق من هويتي.

مصدر؟
عملي؟
 أفكارك؟
 آرائي؟

وتشاطري... لكم تضحكى كلمة نشاطي!!
سألتي المحقق، وذاك المحقق كان من الثناول بمقدار لا يليق
بمهنته، وسحته لا تدل على مهمته. كان ناحلاً وشاحباً، عيناه غائتتان،
وحريتاتها، وتبدو بداء مشلونتين تتأرجحان، حين كان يمشي، أكثر
ما ينبغي، ورأسه بلوح فوق رقعة طويلة، بارزة فيها الأوردة المزرقة،
ودائماً سبجاته مطافأة بين شفتيه.
سألتي عن مهنتي، فقلت له لا مهنة لي، فقال: يعني عطلجي، ممسك.
قلت له: نعم أمسك في القصيدة. فأطلق ضحكة حائرة بين النباح
والضحك، ثم ازرق وجهه، ودمتي صامتاً، لم أفدر ماذا يريد، توقفت
وقدرت أنه يحتفر الشعرا، أو أن الكلام الذي قلهه جعله يستخدم مقدار

41
أخرى من ذكائه لتحلل شخصيتي، دنا أكثر ثم بدأ ينح في وجهي،
صرت أراجع. تقدم ومنهج أراجع وتقدم ومنهج. طلب مني أن أنيح
مثله. ارتدي على بديه مقلداً شكل الكلب، رفع ساقه، سحب عضوه،
وبال... ظنت الحس. فاتخرج خوفي بنوبة من الضحك... اهتاج ولَح
بيده الطويلة وصفعي، ثم أطلق عواء طبلاً. فجاوته في أنحاء السجن
أصوات بشريه راحت تبيح بدورها، حتى كلاب الحرسا أخذت
مطرحاً لها في هذا المهرجان، وتحول السجن بحراره وسجانه،
بجلابيه وضحاياه، إلى طابور هائل ينح تارة، وثارة يعيو.
في حالة هستيرية مربعة، تقدم المحاسن الطابور، آخذًا دور الكلب
في حالة هياجه المسموع، تبعه مئات من المساجين والمساجين. الكلب
يمشي على أطرافه الأربعة، الرؤوس نحو السماء، فاغرارة الأفواه، خرجوا
جميعاً ودبوا في الصحراة... وغابت معهم أصواتهم...
.. وكان غياب آخر من غياباتي.
عندما صحت وجدت نفسي غارقاً في بركة من دم. تقدم مني،
عندما شاهدته وتحقت أنه هو المحاسن صرت أنيح تلقائياً، وأامر غ
عند قدمه. وسعت صوت مصطلح شهلي، في واحدة من نوباته،
يصرخ وحيداً، بعيداً... معانباً خالقاً:
ماذا تريد، أيها الرب، لماذا تخلت عن إنسان لا حيلة له وحيداً
عانياً في هذا الخلاء، وتحت رحمة هذا الوحش الذي خلقته بنفسك،
يفتَّش جلد ظهري بسياطه؟ لماذا؟...؟

42
هل تمتتحن إيماني بكل أبها الرب؟
هل تمتتحن صبري، وقدرتي على احتمال الألم والوجع؟
فإن كنت مؤمناً أو ملحداً، فماذا ينقص أو يضيف هذا على سر وجودك؟
الهواء يستغيث من سوط هذا الحيوان الذي تراه يجلد عري ظهري,
لا تسميم ارتطام الذي يفشت حتى روحي الغائرة؟
ما بك؟
كنت تشاهد وأنت الذي لا تغفل لك عين ولا تنام، حطام تلك السيدة مرمية تحت النافذة التي تطل على سمائك والنجم. لا تراها،
وترى ذلك الوعود يهتكدها؟؟
ألا تراها وتتراني؟
ألا رأيت كلاب الحرس تجز أشلاء آدمية، على أدميم هذه الأرض الفانية والباقي أنت؟
أليس بالإمكان أيها الرج أن تفنى الأرض، وينفي انت بعنف أقل؟
بديم أقل؟
بتعدي أقل؟
هل تسمعني؟
هل تسمعني يا الله..؟؟
فسخرت في انفعال جنوني، أسمعك أسمعك يا كافر ماذا تريد؟

43

Twitter: @ketab_n
لا صوت يأتي في مثل تلك الليلين، سوى الآتيين الذي يشح من الجدران، أو يأتي من البعيد خلفها، عندما تنبط القلوب من مهمتها، والذي يبقى بقايا أشلاء آدمية، وبقايا استغاثات تنتبغها الصحراوات، ويبقى صوت مصطفى شبه مدويًّا لوقت، معاني خالقه أكثر من عتابه لجلاله.

أنت خالق الآتيين... تدبّر. كان يقول: لا شيء كان يُسكَّن مصطفى شبهي، سوى الحقيقة التي استُحدثت بدل الجلل، إلى أن أصيب لاحقاً بنوبة من الصمت... والتأمل.
لكأنه اشتهى رائحة أفكاره، ترى هل يستطيع هذا اللعين اشتام الأنفس؟ كما الأجياس؟ وكذا قدشعت وآنا أخذت فيه مستعدًا تفاصيل تلك الليلة، التي تفتقشت من الصراخ، ومن هذين مصطفى شيلي، وثمنها رئيس السجن، بمحضر رفعه إلى قيادتها في العاصمة، عن عملية تمزد وفرار قام بها بعض السجناء. ضمن المحضر أسماء الذين اختفت آثارهم، كانوا مئة، ما عدا اسماء وأحدا هو اسمي... انتابتي قشعريرة حين ذكرت بقايا الأشلاء التي مررت بها: فردة حذاء ومشط قدم، جمجمة تحدق في السماء، قطع ثياب ممزقة، خصالات شعر تتقاذفها الريح...

امتحت هذه الصورة من راسي، عندما تعلمت وأصدر صوتًا موجودًا!

ترى هل هو جريح؟ سألته:
ما بك؟ موجود؟
لا تظهر عليه علامات أعطاب أو جروح، مثلي أنا...

سألته بمراج المعانب الحذر:
أنت كلب أم السجن؟ كلب أمر السجن أسود، وأنت لونك أبكر.
هل تذكر ماذا فعلت برفاعي؟ كنت واحدًا من ذلك الفصيل الذي نهش

45

Twitter: @ketab_n
أجسادهم؟ ما بك، هل تذكر مثلكما أذكر؟ هل شاهدت ما شاهدت في
هذا الخلاة، بقايا عظام بشريّة، وفرؤات رؤوس؟ هل شممت فيها تلك
الجريمة التي ارتكبها وفصيلًا من أولئك الأوغاد؟ يا... ماذا أنا ديك؟
يا كلب؟
كان ينظر إليه، لكنه يصغي على شيء من التدمر، ينظر في البعيد، ثم
يعود النظر، يرفرف ببرمث عينيه.
ما بك؟
تذكر أن تفعل بي ما فعلته في تلك الليلة؟ إياك... سأهشم جمجمتك
بهذا العكاز الذي سويته من باب سيدك إذا اقتربت... فهمت...
فهمت؟
لكأنه قدّر شظئي وحزني. فازداد انطواءً على نفسه. صار يتجمّع
حتى أصبح رأسه قرب قدميه، ورمى «شدقه» على الرمل، ولمتص في
عينيه دمعة.
تأملته بشيء من الإشفاق.
هل أنت جائع؟
رمقي بإذلال! ففتحت له علبة من اللحم، رميت له بعض ما فيها...
شمّها... ونظر إليه ثمّ شمّها ثانية. لكنه لم يأكلها. صار يوزع نظراً
بين وبين قطعة اللحم، ويرفرف ببرمثه.
كلها لا تخف. أنا لم أخف منك، وأنت لا تخاف مني. كلها...
حقر... كلب... كلكم كلاب.
تجاهلته قليلاً، لهوت بخيوط الفجر، وبهاء شجرة السدر، وعاودت النظر إليه. لماذا لم تأكلها؟ لا تحب لحم البقر؟ تعودت على لحم البشر و"الزغاليل"... من عودته؟ كلها، كلها.

أين كنت ليلة أمس، حين بدأت السماء تنطرح حماً على رووسنا، وقامت القيامة؟ أين كنت حتى نجوت مثلي؟

أنا نجوت لأنني كنت أبوي، ولكن كما ترى، لم أنج تماماً. تماً جسمي الجروح، مثل التي تماً روحي، وأنت؟ مجروح، مثلي، الجرح الذي في نفسي، أشد فناً وألمًا من هذا الذي في فخذي...

كلها، كلها، كي لا نموت من الجوع.

أنت الذي كنت تذهب إلى الصيد بصحبة ذلك الوح، لصيد الطيور؟ كان يقول عنك: يصطاد الطيور مثلاً يصطاد البشر. هو أنت، أم الكلب الأسود؟

أولئك الأوغاد حولوك إلى ذنب مفترس، أنت تريد أن تكون كلبًا؟ تريد أن تعود إلى طبيعتك. أعرف، حاجتك هي التي تذكرك بطيبتك، ثمة تذكرت أنا طبيبي، عندما رأيت نفسي وحيداً هناك، فمشيت، لأن الإنسان يمشي، عليه أن يمشي، حتى لو كان بساق واحدة، حتى لو كان يجري أنه يمشي في المجهول في طريق خطر لا يوصل إلا للموت، لكنه يختار ذلك. وهكذا مشيت، تركت ذلك السجن الذي حضرتك كنت واحداً من حراسه الأوفياء، تأمر بأمر سيدك المريض وتنطق خلف الأرواح البشرية ترضية.
كان ينظر إلي ويرفرف برموعه، وأسك لوقت قصير.
هل تعلم أن سيدك مريض؟
لا بأس كُل، كُلها.
كان يشمّ قطعة اللحم وينظر إلي، كان كرامته تمنعه، فتفوت عن
التهام طعامه، أو أنه نادم على فقدان طيعته! أردت أن أوبخه قليلًا،
ولكن بعد أن يأكل.
كُلها، كُلها، سأقول لك شيئاً بعد أن تأكل، حتى لا تبدأ نفسك,
وضعت له في العلبة الفارغة بعض الماء، وقررتها منه، دفعتها بعكاز
على مهل... أشرب، قد تكون عطشاناً، أفيد أنك عطشان. كل
واشرب، بعد ذلك سأكمل لك حديثي.
شرب قبل أن يأكل، ونظر إلي طويلاً بعينين عاد إليهما بريق عيني كلب،
يبدو أنه يشكيني على حسن معاملتي وطيبتي، ثم النهم قطعة اللحم.
هكذا اعتدلت رغبة غريبة في أن أوبخه وأهينه وأيده بالماله،
ولكني لم أفعل، كان مجرد شعور عابر.
وعندما حلت بواعث ودواعي هذه الرغبة، قلت هذه عوارض
الجلاد الصغير الذي يكمن في نفس الإنسان، والذي يحتاج لتأهيل
وتدربي كي يتحول إلى جلاد محترف. لم أستنأس كثيراً بهذا التحليل
وطردت الفكرة من رأسي.
أخذت من جذع شجرة السدر في ذلك النهار موطناً لي، وكان
شعوري بالسیر دون هدف خف، وعوامل التي شح ابعادها، وهذا
الكلب، يبدو آنس بعض وحشتي، وراث من همي حين افتكرت
بمقاساته طعامي وشرامي... لكني سلّمت أمري للغبيب وأنا أراقب
كتلة من العشب الياس، تتدحرج في الأنواء... تتدحرج بعض مني
معها... تتدحرج قليي...
وبدا ذلك النهار الآخر أحمر، كان الله نفع في تلك الصحراء، فاشتعلت بالقبيظ والغيار، وتمت شجرة السدر الجليلة بطلالها وبدجعها، من ذلك الجحيم الكوني.
أما ذلك الكائن فبدأ طالباً للإلهة ووود، فغفرت قليلاً، ورويت له حكاية أخي مهدي في احتفالات يوم النصر:
لا أعرف لماذا حضرتني تلك الحادثة، ربما النشابة في المكان استدعاه بكل تفاصيلها.
في عشية من عشيات وادي الدموح "مدينة الحسر"، ومدينة الحسر بلدة صغيرة أطلقوا عليها هذا الإسم بعد بناء حسر في زمن الثورة...
قال والدي: غداً صباحاً سنذهب للمشاركة بالاحتفال، أضافت أمي ستبقي هنا مع جدتي كي تعيش قليلاً وتسبح في أطلانتها. اعترضت على هذا القرار. فقالت لي أمي: هذا الاحتفال ليس للصغار. تضرعت جدتي للحالف، طلبت منه أن يحميها من الأشرار، وأبني الحرام الذين أوقعوا بهم، ثم ارتفعت من قفّ الشاي رشفة أرافت قسمًا منها على ذفتها الموشوم. مسحت براحة بدها، شنتت الكبري، ثم تأملت بخواتم الفضة في أصابعها، وبدأت نواحيها في عتاب الزمن.

51
بكر أمي.
أطلق والدي تهدئات مجمومة، طاطسا رأسه.
لم أترين ملامح وجهه في تلك الليلة. بعد حين غفوتم في حضن
جدتي... أذكر هذا جيداً، وأذكر أنك بكيت لبكا، أمي. وعندما سألتها
عن سبب بكاءها، قالت لي: في وعج بقلبي...
في وعج بقلبي في حزن من سنين...
مين سرقك من حضن يا ضئي مين».
غنت جدتي.
في صباح اليوم التالي استيقظت على صراخ ومشادة بين والدي
ورجال عسكريين، كان والدي لا يريد أن تذهب أمي، ولكنهم أصرّوا
على أن يحضر كل فرد في العائلة، فمنهم العجائز والأطفال، فرحت
في سرّي، لكنها تهبت، وشعرت بالخوف، حين بدا والدي حائراً
مرتبكاً يضرب كفاً يكف، وهو يردُّد: (فاندو الدين والضمير)... كان نظاً أننا في يوم عيد، لكن أمي جرتني على عجل بأمر من
الجنود. حملت فردة جذاثي بدي، بعد أن اتصلت الأخرى، حمل
والدي جدتي على ظهره، ومشينا.
كان يوماً مشابهاً للذي أنا فيه. كان أهل بلدتي يخرجون على عجل
من منازلهم، كلهمهم همس وقلق، وإن تجاراً ولد على سواق ما يضللهم
أهله بإجابة غامضة، وإن ألح على الاستفهام يصفع، ويفكي كاتما صوته
بيده أو بيد أمه...
همماث، أتين خافت، يأتي من الأنهاء، وأزقة البلدة امتصات بالطواير المتوازنة من هنا وهناك، متوجهة نحو الخلاء الصحراوي...

 كنت أمشي بنصف نعل، والفردة الأخرى في يدي، حتى يدوع أعرج كما حالي الآن، زائجاً وسط خقع النعال على الرمل، كنت أقول لأمي وألقو بـ: حذائي... حذائي... فضغط على يدي براحة...

 وهذا يعني أن أصمت. لكني تعبت من عرجي، وكسرت على مسمع أمي برجاء، أي لا أستطيع أن أصل، أو أمشي بفكرة حذاء واحدة...

 فرفعت يداها وساوت منها شقبان كخرج الدابة. انحنى، جلس...

 القرفصاء، وقالت لي أصعد بعجل. وضعتي كصرة في شقبانها، صارني بموازاة رأسها، رأيت ما رأيت...

 لا أعلم من أين جاؤوا؟ غاببة من الناس، لم أستطع أن أثني آخرين...

 في المقدمة فصيل من الجيش، وأمام الفصيل رجال مقتعون يجرون رجلًا عريًا، يتعثر ويففع، يتنادور جره على الرمل إلى أن يأمرهم أحد ما، لم أتبين كيف كنت أسمع صوته: «أرفعه يا غبي»... يوقفون... ويحثونه على الوقوف... يقف، ويقف في عروق أمي حركة الدماء... إلى أن سقطت بي... في تلك اللحظة عرفت لماذا بكاء أمي. لماذا كانت تضغط على يدي وتأمرني بالسكوت، ويسقط من عندي على خدي ذلك الدموع، وأنا أرجعها حمائي...

 قبل ذلك ما كنت أعلم من هو الرجل العاري المسوق إلى نهايته المرعبة، ولا كنت أعلم لماذا تطلب أمي من الله أن يميتها للثو، أن
يعمليها من عذابها... أن يصيبها بالعماء الكامل كي لا ترى ما سنراه بعد قليل.

صرت أبحث بين الجموع عن أبي. ليس باليسير أن أتظرف عليه، في مثل ذلك اليوم، لكن علامه والذي فارقة نتيجة حمله لجدتي. كان يمكنني أن أتنبأ، هو لم يكن بعيداً عنني، لكن الذهول الذي صرت فيه أعماني، وأحسن شاهده وانا أتجرج في شقليان أمي، ناديته... يا... يا...

رمقي من تحت حمله، بطرف عينيه، وتابع المشي... كانت جدتي على ظهره كتلة من الحطام الآدمي، فاغرة مهما، وعييناها زاغتان...

«انهض يا حيوان»، صرخ آمر الفصل بالرجل الذي جنأ على ركبتنه.

يرجوه، ربما كان أبي.

أمر دخل عنقي كالمسلة. سقطت أمي، جانبة على ركبتها... وأنا في شقليانها تحولت إلى خرقة مبللة... أسعفها من أسعفها، وتناولت على حمله الأكفا.

كان الناس يمشون مطاطين رؤوسهم، وقد لفوا وجوههم بالقفاف، ليحتموا من لسغات الربيع المحملة بالرمال. كانت تجرر وجهي وبدني كالإبر، وأحمي وجهي مرة في عباءة أمي، ومرات في معاكية الريح، أطلع إلى الوراء، فأرى جموعاً لا نهاية لها، لا وجه لها، لا عيون...

مطاطة ملثمة.

رأيت ما رأيت.

كان يوماً هائجاً شديد السخط، ما زالت الأنواع، وعواء الريح في
الجبال البركانية اللاحقة في تدرجها نحو الشمال الشرقي، تهب خفيفاً في ذاكرتي، كمنام ممدوح يخط من جديد، أو كمشهد خلف ستارة شفية تراها على مهل، ليكشف المشهد بكل وضوحه...

كانت تصدر من تلك الجبال أصوات جائرة، نباح كوني... كان النبادات يشينه عن هذا الحشد. مشينا نصف نهار، لم يعد يظهر شيء من بلدتنا ما عدا قمم الجبال العالية المعممة بالغمام، وعندما انصف النهار لاح في البعيد خلف الغبار قفص هائل، بدأ هو المقصود من هذا الزحف. تحلقت الناس حوله تلقائياً، لكنهم اعتدوا ذلك، نادوا على أبي أن يتقدم مع عائلته إلى مقدمة الحشد، حيث يجلس القائد ومعاونوه. فعلنا. كنت متمسكاً ببناء أمي زانقاً. لا أدري لماذا أرادونا في المقدمة، بالقرب من القائد.

مشينا، فسبح لنا الحشد لتعبر. كان الصمت كثيفاً، ضاغطاً، وصلنا إلى يسار القائد. أُمرنا بالتوقف. لا أذكر أن أحداً من أهلي تجرأ ونظر في وجهه.

تقدم أحد المقاتلين وفتح باب القفص، أصدر صريراً جارحاً، زار داخله كائن مفترس كان موثقاً بجئير إلى وتد من أوثاد القفص. حين دفع بالرجل العاري إلى الداخل وأغلق الباب، هاجت الكلاب وأمرت بالصمت.

فصمت.

انززع المفقع قناعه الأسود وراماه في الفضاء، فتقاذفته الريح كغراب

65
ميت هوين من سرحي. ثم انتزع فصيصة ورماه، ظنه البعض ومنهم آمر
الفصيل، أنه يتفنن في أداء واجبه ويفيض عطشاً بحلماتي، فأمره أن يخفف
من حركاته الرعاه. أكمل التعري، خلع حذائه، تأمل في عيني الرجل
العاري، ثم أطلق الغانه قدمه في مهب الصحراء... بعثه الكلاب،
وأطلقو عليه الرصاص فاتمى على وجهه دون حراك. همهم الجمعُ
ثمّ عَمَّ الصمت ثقباً... وانحشت القامات أكثر.
كان ذلك الوحش يزأر وينطوي بجسمه ويعقص نحو الرجل العاري
الذي انهار على ركبيه، يحاول الانفلات من رباطه، فترتفع الغصص،
وينتهض قلبي. أمر القائد بفك الجنزير المربوط به إلى عارضة من عوارض
الغصص، ففعلوا. فانطلق كالسهم فاختفا شديقاً لنيهش حطام مهدي... نعم
إنه مهدي، لقد رأيت كيف يمرّن ذلك الكائن لحمة. أمر القائد النسوة
أن يرذلن، وعندما شاهد أمي جاذبة تحمل الرمل براحتها وترمى على
وجهها، وقد احتفظ صوتها وبيكاؤها في مكان مشتعل من صدرها، تقدم
منها وصفها، (تبكيئ الخانين يا فحية)، فاتميت زائعاً على حذائه،
راحياً أن لا يضرب أمي، شاصحاً نحو وجهه كفرخ طائر كسيح.
اذكر عينيه ولا أنسى...
قدّ السماء وشفها برق هائل، ثم دوي رعد صمّ الآداب، اختلطت
الاستغاثات يعول العاصفة ونبع الكلاب، أطلق الرصاص عشوائياً;
لا أدرى إن كانت العاصفة هي التي حملتنا إلى تلك الجبال البركانية أم
الأقدار. كانت الريح تتفادينا. تتدافع متفرقين مبعثرين كحطام بشري.
منذ ذلك اليوم تفرق الشمال، وبدأت مئاتي... ولم نعد إطلاقاً إلى مدينتي الجسر، وأدي الدمع، لقد هجرت بعد سنوات قليلة حتى من الطيور، بعد تقطع نخيلها وشجرها وتجفيف مائها.
هذه قصة أخي مهدي، وللطيور حكاية أخرى...
أندي، أن الكلب الذي أمره قائد الفصيل أن يقف على أخي ويجره إلى القفص، فعل كما صاحبه المقنع، عدى عواءً عجيباً ثم فز نحو الصحراء، أيضاً أطلقوا عليه النار فتدحرج طويلاً على الرمل، وهدم.
أندي، على كل حال:
هذه قصة أخي مهدي، أما قضتي فطول.
 كنت أقصر، فعلاً على كلي، صار كلي، نخيل، صرت كلي، سجني، كلي، قاتلي، جلادي. نملك الكائنات والأشياء حتى لو كانت معادية ومؤلمة وقاتلة.
هذه أنواع من الملكيات اللغوية!! أتحيل عندما أقول سجني، كأني بنيت سجناً لنفسي، كما البيت الذي بناه أبي ليحيمنا من الصيف. أمر مضحك أليس كذلك؟ قاتلي، كانني اخترت أبداً من فصليني، وسويته قاتلي، دُرِّبته على قتلي، أو كأني ألمت جلادي من لحم ومدم وسوط؟ سوط قطعته من أسلاك كهربائية، بقباطية فتاكة.
دعوك من هذه الرهات...
قلت لنفسي، وأسدلت الستارة على صورة أخي، على فول ذلك

57

Twitter: @ketab_n
اليوم، على حطام جدتي فوق ظهر أبي، وقد ازدادت ذهولاً وهزالًا، كانت بالتأكيد تعلم ماذا حدث، لكنها أصيبت بالخrous، فقط كانت تلوح ببديها كفصنين يابسين، بترجنان في الريح...
لقد كان يحزني صوتك يا جدتي وأنت تغنين «الفروقية»

وأما أبيكي:

ع غيابك دهر
وأهجر هالبلاد
وروح
نكس بيارق حزن
ارفع رايات
 الروح
سود في السطوح
وأعلن ع فراقك
مية سنة الحداد.

أعرف أنى ورثت منك الغناء والفجيعة.

جدتي "يغصايبيت" اسمها القديم، وأزيابيت تخفيفاً على اللغة العربية، استقر فيها إلينا أو لبنا، مثلما صاروا يتناولونها بعد النهات.

تذكر، جيداً، غناها وآردده، أنشلي به أحياناً لأؤنس نفسي، وأذكر لكتبتها العراقية المطعمة بلهمة مصدرها القديم في قرية من القرى
المتاخمة للواء إسكندرون اسمها «فند تجاجك»، هذا ما تذكرته جدتي.
ولولا ذلك الكتاب الذي حملته، كانت نسيت أسماء أهلها من بين
جملة ما نسيته. أذكرها. وتحضرني برأسها الصغير، بعيوبها السوداء،
وبعينين خضرافين غارئتين، خفّ بريقهما منذ وقت بعيد، وجهها
التفاني، بوضٍ خفيّف على ذقنه، لا يفارق البال. أذكرها دائماً تسند
خديها براحة يدها حين يأخذها الشوق. وتغني...
في وقع بقلي
في حزن
من سنين
مما سرقلك يا عمر...
ملاء بالحبسات، غناها. يفضل عن ألم معتق، وهو مزيج غريب
من الألحان. غناه لا يشبه غنا أحد، خاص بها وحدها. وقد حفظه.
ويغذيني.
كانت بنت سبع أو ثماني سنوات زمن الإبادة، كما تذكر. وتروي
لي في تلك العشيات، وحين تمس تشمل الكبير، وتغني.
كانت صغيرة، تلهب بعيداً عن بيت أهلها في الكرام، عندما بدأ
الصراح والعويل وتعلع الرصاص، وهاجمت الكلاه، على بداية
الغروب، اختبأت في «جب» من الشوك تحت دالية معرضة على شجر
السنديان، حين شاهدت العسكر يجرون الرجال والنساء ويطلقون
 عليهم الرصاص، ويحرقون البيوت... غارت عميقاً في نفسها وفي

Twitter: @ketab_n
ميختها، وبقيت طوال الليل، في حالة من الذهول، تسمع بين حين آخر طلقات متفرقة، وصرخات بعيدة في الأودية يتدد صداها، ونحاتا يكتمل طلق آخر...

ولشدة التعب والخوف أخذها اليوم على بدايات الفجر، لتصحو عند الضحى على بلاد خالية من أهلها. بيوت يتضاعد منها دخان نهایات الحريق، وفي البعيد، فلم أناس يجرؤن أجسمهم في الوعر... لا أحد هناك... مشت إلى بيت أهلها، وهي لا تقدر على الإطلاق، ما الذي صار، لم تجد أحداً في البيت.

تذكر خياماً من الدم عند العتبة، تبعث نحو نهايته فاختفى أثره بعد حين، فنادعت تمشي كما تقول، دون هدف، جالت في القرية، وشاهدت رجاءً ونساء مقتولين أمام بيوتهم، وفي الطرقات، الحيوانات أيضاً غارقة في بحيرات من دما... صارت تمشي، ولا تعرف لماذا تمشي إلى أن وجدت نفسها خارج المكان، خارج القرية، في العراء، تجرها طريق مجهولة، حفرتها حوار الغلال والماء، تجرها إلى نهاية ما لا تعرفها... وحين أصبحت على تل مرتفع، شاهدت في المنحدر جميرة من الناس، يجرؤن أنفسهم وخلفهم سهابة من غبار... لحقت بهم، ولا تذكر كم من الأشياء مشت غريبة مع غريابها لا تعرفهم.

فقط ضمت مصيرها إلى مصيرهم.

لم تحمل جدتي معها شيئاً سوى هذه الحكاية، وإنجيل خيابة تحت فستانها، أو صنها أمها به كذكرى قديمة تنورتها الأمهات، ويكثن على

۶۱

Twitter: @ketab_n
صفحته الأولى البيضاء، أسماء أبنائهن وبنائهن بعد الزواج، أوصت به من زمان، وكانت قد قرأت اسمها بين الأسماء. حملته حين دخلت البيت، وخيأتها تحت فستانها.

كانت تقول جدتي: إن عدد الناس كان يتناقص في الطريق، كان يموت بعض العجائز والأطفال من الجوع، أو ممن تحتوى، فيدفون على عجل على جنبات الدروب، تحت شجرة، يغطون بالشف أو بالأغصان، وترسم حدود قبورهم بحجارة تحيط بالجثمان... لا شاهد عليها.

كان العدد يتناقص، والهيئة تتناقص، كل شيء يتناقص... لولا العشب البري الذي تعرفه العجائز، ولولا بعض ثمار الشجر، شجر الميس، والزعرور البري، والماء الذي يحظون به عند سفح أو قرب دغل، لمت الجميع جوعاً وعطشاً.

وتذكر جدتي، أن ناجي فوالف مرّ بهم في ناحية من ناحيتهم، وسألها عن أهلها، قالوا له، أن لا أهل لها، وقد عرّفو عليها في الطريق تبكي، ففضح أن يصطفحها معه إلى بغداد... رفعت، ولا تعرف في البداية لماذا رفعت. كانت تقول إنها تعودت أولئك الناس الذين التقى بهم، وصاروا أهلاً لها في الشتات. سأله إحدى العجائز عن حاجتها بها أو إليها، فقال: إنها الوحيدة التي لا أهل لها بينكم وقد تجد في بغداد حياة أفضل، تعمل في دور الأغنياء وتعيش على الأقل، وربما يظهر بعد حين، أحد من أهلها. سألت جدتي تلك العجوز التي أحست بود نحوها،
كانت تجر حفيدها بيد ويد أخر تثبت صرة على ظهرها، سألتها عن رأيها، فأجابتها، اتبعي إحساسك يا بنتي، تثبت جدتي إحساسها ورفضت.

مشوا مع القافلة يوماً على ما تذكر جدتي، أعطاهم طعاماً ونقوداً عند مشترقة طريق. ومنذما افترقت القافلة، نادى العجوز، وقالت: جدتي اذهبي معه، لا تخافني، يبدو أنه من طينة طيبة، وفي كل الأحوال، قد يكون مصيرك أفضل من المصير الذي ننتظرنا، جعل ذلك على نهاية العمر، ونسبة أراهن، نكد تتفجر برق آخر أمر عيشنا في هذا العالم، وهو بإمكانه حمايتك، وكأن جدتي كما روت، أحسست أن تلحق به عندما افترقا، قبل أن تاديه العجوز وتضحكها على اللحاق به. تثبت إحساسها، أو ناداها مصير ما يتظرها على ضفاف دجلة.

ترى هل يدخلك يا جدتي بالطعام؟ لا تستطيع جدتي حسم ذلك. تذكر أن حملها ووضعها على ظهر راحلة بين البضائع، وسارت القافلة يومين أو ثلاثة أيام، باتوا للبالي في محطات تشبه البيت، قبل أن يصل، وتستقبل زوجته وأمه زيب. تذكر جدتي الحاجة زيب التي حممتها وسرحت شعرها، وعثرت في لفظ اسمها، عندما سألت ابنها عبد الكريم عن اسم الفتاة، قال لها بقصبيت، يعني أليزا، كان عبد الكريم كتاجر يعرف التركية والأرمنية، لعل أرمنيته، جعلت جدتي تشعر بالأمان على ظهر راحلة وهو يحدثها بين الحين والآخر.

Twitter: @ketab_n
حرصت واحترمت الحاجة زينب من اسم جدتي بضعة حروف،
لتبقى على الأسهل إليزا أو ليزا.
ليزا، اسم لا يشبه طبعها.
تعودت هذا الاختصار أو التحريف، لكنها لم تسأ اسمها القديم،
ولا أهلها، ولا تلك الحكاية. كانت تسأل عند كل غروب عن موعد
وصول أهلها. تسأل عبد الكريم، فيجيبها العالم عند الله.
بقيت في بيت حوالي ثلاثة أشهر، تداعب ولده ابن السنتين، وتساعد
الحاجة زينب في الطهو، تذهب معها إلى السوق لشراء الخضار،
وأحياناً إلى ضفاف دجلة لشراء الأسماك الطازجة. كان عبد الكريم
يقول لأمه «لا تعدينها عليه الدلال، والمشاور، باشر نبيعها للعزاوي».
كان قلب الحاجة زينب ينفر، عندما يقول ابنها هذا الكلام.
وتقول له: لا والله هذي بنتي.
قبل سفري في رحلة جديدة من تجارته، باعها لعائلة من آل العزاوي،
لكنها لم تبق ليلة واحدة في بيت مخادموها الجديد، هربت في عشية
اليوم نفسه، عبرت عليها الحاجة زينب في فجر اليوم التالي، نائمة
في حديقة البيت مغطاة بسغف من نخيل، فحملها إلى فراشها...
وأقسمت أن لا تخلي عنها، حتى لو اضطرت لأن تذهب بها إلى آخر
الدنيا. قالت هذا بوضوح، لأنها عبد الكريم الذي رضخ على مضض
لزغة والده، وكان بين الحين والآخر، يذكرها بأن النبي في الإسلام
شيء ممنوع، فتوجه له: لا تتهيها يا أخي، أنا أتبناه، وضيف: جارية

Twitter: @ketab_n
خلال والتبري حرام يا ابن البلال... لا والله ما أقبل. وسُجِّلت في أول
إحصاء باسم ليزا عبد الكريم.
وتذكر جدتي يوم أحبت عبد الجليل الذي صار جدي، كان يعمل
على القوارب في دجلة، وكانت حين تذهب لشراء السمك، يسرقها
في رحلة عبر النهر، إلى أن سرقها ذات يوم في رحلة طويلة، كما تذكر
وتشمور وتنبئ لثنا الحمراء، لتصبح ليزا عبد الجليل الغزال...
عبد الجليل اسم جدي.
اسم حملته أيضاً لسنوات قليلة في وادي الدموح قبل أن أسفي
نفسه يوسف. وفليس في أول اسم مستعار حملته، كان ذلك ترنيتاً لي،
عشية هرودنا من وادي الدموح بعد مقتل أخي مهدي، حين استوقفنا
حاجز للتفتيش وسألني عن اسمى. كنت أيضاً، مثل جدتي، ابن ثماني
سنوات، وكان الأزمان تتشابه والأحداث تتكرر، نطق يوسف.
وتنوال لاحقاً أسماني المستعارة في بيروت.

Twitter: @ketab_n
فأمضيت يومي الثاني تحت شجرة السدر، بالقرب من كلب السجان، صار كلب السجين. حكيت له، واحداً من فصول شفاني، وكان يصغي، لا أعرف إن كان يصغي إلي، أم إنني كنت بحاجة لأن أحكي، أن استعيد من الذاكرة ما يبدو أشد قسوة كي يخف حملي وتفخ مفسيبي، ثم ما الضجر إن حكيت لهذا الكائن بعض مصاني. كنت أشعر بأوجاع معتقة في داخلي، عندما أنظر إليه وأحكى، ويناملتي، ثم ينظر في البعيد، لكنه يشاركني وجي. 
قد يكون نوعاً من التدبير، إن أمضيت ذلك اليوم العاصف تحت شجرة السدر، إذ إنني فكرت عندما مالت الشمس نحو الغروب، أن السعي في المساء أهون وأخف وطأة، وإن خيالاً عملي لم تبقى أكثر رحمة من سخط الشمس، عندما تسقط عمودياً كسيخ من النار على الرأس، ويتحول الرمل إلى طحين من حمر تحت الأقدام.
وقد يظن المرء في ما يظن، وفي لحظات البدس الكبرى، أنه استسلم لأي مشيئة أنت، ولكنه بعد خطوات في المناهة التي أغوته، تعصف في نفسه رغبات غامضة في تصوب المسار والتدبير. وغريزة البقاء كما.
يستمرونها تصبح أكبر من أي نعم، أو اشتقاء للموت في لحظات التشتيت والانسحاب والإذلال.

لطالما استشهدت الموت في السجن، وتمت أضرار ذلك الوغد. لكنه لم يفعل. فكان يضحك بمحاس هستيري ويقول لي: "أنا شو بكيشطلا إذا قلتلك يا حيوان؟" كان يصاب بنوبة من الهذيان فيضرب كل شيء، يراهم أمامه من بشر وجماد. وفي لحظات صعودها ذروة الجنون، يضرب رأسه في الحائط، ويخرج كعجل ذبح يركض في الممرات يضرب الأبواب ببعله، صارخاً: سأقتلكم جميعاً يا ولاد القذاب، فدوم أذبحكم وأرمي جثثكم للكلاب يا أوغاد.

لكنه لم يقتل، كان يستنكر بعنف على مهل قبل أن تتشعل فيه ثورة جنونه.

المراجع هناك. هو أيضًا سجين من نوع آخر!!

في واحدة من المرات، جاءني وكان يحمل نفحة يرميها في الهواء. ويلحقها بالنظام. فتح باب الزنزانة، وأمرني أن أتبعه. ولا أدرى، كما المعادة إلى أين يأخذني، ليؤدي روحه كما كان يقول. إذ تبعه في الممر الطويل، على الجهتين زانين الدورة الثانية، كنت أرى من وراء قضبان كوى الأبواب جوهاً ذا رتلاً، تصاب بالانه탈، وبارتفاع منسوب اليأس، عندما يتحرك مفاخ في قفل ويصرخ السجن.

كان صوت عامر الدلبيجي يأتي من نهاية الممر. يؤدي وصلة من

٦٨
وصلاته الغنائية. لقد أصيب بهوس الغناء، قضى معظم سنواته يغني، وكان لا يكفي عن الغناء، إلا في حالات التمثيل، أو عندما ينهال عليه السجن بالسوط. صار عامر الدلعي نداءً من أنواع التعذيب المستحدث، فإذا أرادوا أن يُكره سجينًا بدخلته زنزانة الدلعي الذي لم يبدأ وصلته، كان صوته حادًا كخزة الأذى، وهزناً، يعرض من يسمعه عن قرب لحالة من الانهيار العصبي، حيث تبدأ ردة الفعل الأولى بالضحك من طريقة غنائه، ثم يتحول الضحك إلى رجاء كي يُكَف عن الغناء، أو يقوم باستراحة ولو لثوان، بالطبع كانت تنهي الوصلة بمساءة. كان يتعرض للضرب بعنف، أو يصاب المستمع بحالة من الإغماء.

في حالات سام آخر السجن، كان يأمر بقيم حفلة لدلعي في البداية، يعطي مسرحاً مرتجلًا، من صناديق ذكره خازنة، يجلس أمر السجن على شرفه وأمامه كل أفراد العرق. ثم تبدأ وصلة الدلعي بعد تقديم من أحد السجناء، يصفه بالطرب العظيم، والنصور الشجي... ويصرد المنصة وتبدأ المأساة لساعات طويلة، كان أمر السجن يتوزع من الضحك، يغيب ويعود، ويطلق من مسنداته عبارات بالقرب من أقدام الدلعي، يفتتح تجربة، فينحني، ويتبع... إلى أن يحمل بالقوة من على المنصة ويزيج في زنزانته.

كان هذا نوعًا من التعذيب الجماعي الذي يجعل البعض على أن يضرب رأسه بيده أو برأس جارته، وهو بطاعته درجة مخففة: الدرجة الثانية من درجات الترويض في العراء، كما يسميها آخر السجن، أما
الدرجة الأولى من هذا الصف، فكانت تتم خارج السور، في أقفال معدنية ذات سقوف واطئة، لا فتحات فيها، تشبه خزانات المياه. كان مصطلح شبيه بـ نيف هذا النوع من الاحتراق بدرجات السعير. كان السجين يوضع وقت الظهيرة في عصر الصيف لمدة ساعتين. وكان من دخل هذه الزيارتين المعدنية لم يخرج إلا محملًا إلى مقبرة الصحراء، أو إلى غيبة قد يصحو منها أو لا يصحو، وإن بقي على قيد الحياة بقي فاقتده ذكرى.

المهم تبعت جلادي اللعين، سألني: "ع بالك وصلة من الدليمي!

فقلت له إذا أردت أن تخزيني، ردني إلى حيث كنت بي، نظر إليَّ مستخفًا طالبًا، فتح الباب الرئيسي للسجن، وتابع نحو باب السور، تجمدات دماني في عروفي. عندما شاهدت تلك الأجسام الجلحمية السوداء، تتصاعد من فوقها ببركة الاحترق.. ما رأيك؟ طالع عيالك تتحمر مثل فروع الشواية؟ ثم خبرني بين أمرين، أو بالأحرى اشترط علينا أن أُلْقِح التفاحة بفم مباشرة بعد أن يمر بها في الهواء، فإذا أظهرت، أكلت التفاحة، وإذا أخفقت أكلت نصبي ساعة على الأقل داخل هذا الفرن. فقلت له: هل تظن أنى أملك شدق حوت، افعل ما تريد، أنا لا أستطيع أن أُلْقِح حتى جبهة عنقب في فمي، لامتنعم على هذه البهلوليات، فقال لي إذا لم تفعل نساحتلك، وإن أخرجك إلا مشويًا بأيها الحفير، وهجم بكل سخطه ناحي.

علت جلبة عند الباب الرئيسي الذي تركه مشرعًا، اختلط هياج
الكلاب داخل أقفاصها، بدوئي بعض العبائر النارية وصراخ الحرس،
رمي بالتفاحه وهرع نحو الباب...
وحش دخل باب السجن وقتلوه... ونجوت.
Twitter: @ketab_n
مالت الشمس نحو الغروب، وهدأت العاصفة قليلاً، ثانية 
اختتنت نوبة من الحنين. نظرت نحو كليبي، وأحببت أن أسميه، 
لا يوجد له اسمًا يتناسب وحائطين، أنا، وهو. هو لم يعد الكلب الذي 
كان عضواً في فصيل كلاب السجن، وهو بالتحديد كان يقى خارج 
الأفواص، كحور منتقل، كان يصطحبه آمر السجن في رحلات 
الصيد. كان ينقض بأوامر، على عكس كلاب الأفواص التي ما إن 
تفتح لها الأبواب، حتى تلتهم أي كان يمر في طريقها. على كل حال، 
هو بالتأكيد كان بحاجة لأنس وشم رائحتي، بحاجة لإنسان حي، لا 
لإنسان ميت، إلا لكان بقي في السجن ينهر من أحساد رفاقه الذين 
قضوا في ذلك اليوم الجبوري.

ترى هل هذا تحليل مطفي؟

 كنت أحار وأسأل نفسي، وأسأل، وأكرر استلتي، كما يفعل المحقق 
عادة.

أين كنت؟ كيف نجوت؟ ولماذا لحقت بي؟ لماذا لم تساعده آمر 
السجن؟

هل رأيت سيدك، كيف كان ينذل بنصفه العلوي من بين قضبان

73
النافذة، يبدو أنه كان يحاول الفرار حين التهم الحريق حجرته. لماذا لم تنقصه؟ كنت خارج السجن، بالتأكيد كنت تجوب في المحيط تشتم رائحة ما... لم يمكنني سيدك من النجاة لضخامة كرشه، إذ إن علق من وسطه بين قضبان النافذة.

كان رأسه يتدلى كذبحة. لم أنجرأ على أن أنظر في وجهه.

لنت أصرخ في الممرات، هل من أحد هناك. حتى الزنازين السفلى قمت بحولتها عليها، كانت شلالات الضوء تختبر الفتحات ككشافات كونية في عملية مسح لمسرح الجريمة.

هل من أحد حي؟ كان صوتي يرتمب بالجدران ويرتد لرجأ، هل وحدي بقيت حياً؟ هل هذا عدل يا الله، كنت أصعد الدرج المؤدي إلى غرفته، عندما شاهدته على هذا النحو.

أين كنت أن؟ هل تفقدت صحبتك مثلما تفقدت صحتي؟

نظر إلي ولوّح بذرنه قليلاً.

على كل حال، ماذا أستبهك؟

ماذا أسْتَهْي هذا الكائن؟

في ذلك اليوم، بقي يدور على المسافة نفسها مني، يدور على شعاع لا يتعدى عشرة أمتار، كان يتعدى قليلاً ينبع في الخواء، نباحاً خفيفاً، بدأ كتمرين للصوت، ليس أكثر من ذلك، أو نباح احتراري، ثم يعود ويتمدد، وتروع عيناه، تذبلان، ويطلق لسانه على مداه، من شدة الفظاعة. حين أحدثه يلتقي نحوي ويتمعن في ملامحي.
لم يقترب كثيرا مني. لكي أنني لم أظهر شيء بعد، ولم أشعر
بموعة عميقة نحوه. وربما كان كلامي مع امتحان لي، وله قليل إبرام
عقد الصداقة. و كنت بني وبين نفسي، أرغب أن لا يقترب مني،
ولكن حين يبتعد ليطلق نباح الاحتراز، كنت أرغب أيضا أن لا يبتعد
بالمقدار الذي يتدافع علي روحي.

أخاف؟ نعم أخف... أخف من العدو الأكثر غموضاً؟
 كنت ألم به هذه الأفكار والتفكير. رأيته يتحفز، انتسب أذناء،
وصار يتحركهما كشاشة رادار، كلاقط للصوت. ثم راح بعدو بسرعة
مهدة، خفقت قلبي، واجتاحتني قشعريرة الخوف. كانت الشمس على
باب الغياب، والعاصفة مع بداية انحسارها، والغبار يحجب الروح
على بعد أمطار قليلة، حيث تتحول الأجسام فيها إلى أطياف سرعان ما
تحتفظ وتتلاشى، اختفى طفله، وجرت خلفه أفكارا. ترى ما الذي
يشع به؟ هل اسمع رائحة وحش؟ لا أتصور ذلك، عادة عندما تتشمت
الكلاب رائحة الوحش تطلق نباحا... لم يظل غيابه، رأيته يخترق
مجال الروحية عادة بسرعة أقل، ارتفع على المسافة نفسها فاغرا شديدا،
مندلي اللسان، لاهتا، وعيناه دائما في عيني.
ما الأمر؟ سألته.

ربما أحس بوقوع طائر ميت. كثيرا في تلك العواصف، ما نموت
الطوير المهاجرة، وتهوي من سماها عالية إلى الأرض.
لا بالأس.

75

Twitter: @ketab_n
ماذا أسعيك أباه الأحمق. أندرني؟ إنما أشعر بشيء من الرضى
عندما استعيد ببعض سكريتي القديمة، التي كنت أظن أنها أحياناً في سنوات
السجن، أنها دخلت في حالة سبات طويل، لكنها كانت تعاودني
أحياناً. لكم كانت تُعرفني على احتمال المهارة وسحق الروح.
تعلم؟ عندما سمعت نباحك للمرة الأولى، وأنا خارج من تلك
الجهاز في الجدار، حاولت أن أركل، لكن قدمي لم تسعفي. بدت
لي كخربقة بالبية، فشتمتها بعنف كما لو أنني أشتم صديقاً خيب آمالي
وخاني. ثم ضخت على حالي، فماذا يوسعي أن أفعل؟ حتى لو كنت
سليماً، وسافين متيتين أمام عدا، عظيم مثل أفضالك... أباه الحقي...
مسموع؟
كان ينظر إلي ويهز بدلال ذيله.
هل تعلم أنك كلب جميل أباه الوغد؟ جميل يا قواد. تشهب كلب
الراعي رشيد في ثلة سليمان، قريبة مريم. كنت أقول لحريم، دعني
أتذوق رمانك يا مريم، وأعطوك بنстан رمان أبي.
شعرت بخدر بطل عقلي، ورددت بلا وعي: «أربيتي نهىك يا مريم، وأعطوك رماناً من حقل أبي».
هذا الكلام كان فاتحة شقائي ومدحتي.
كان يحمر وجه مريم وقولة لي عيب أنت أزعر...
وكان أرجوها...
وحضرتني مريم بكل نضارة عمرها...
سلام لمن علمني فلّك عروة الحرف، لأزرر قميص الحبي لول…
أنت تعرف أمامي في الحصيد، وكنا نرعي المواصل على الضحى… يا ليتني… وانتهنت أنني أصبحت في حالة عاطفية فاضحة…
لا بأس… سأخبرك عن مريم لاحقاً.
وشعرت بعلاقة عقلت في حنجرتي. ونتعمت حتى الامها صورة مريم.
هل أنا سوي؟ سألت نفسي، هل يعقل أن أروح بأسراري إلى كلب؟
أو أن أحدثه كما لو أنني أحدث صديقاً حبيباً؟ وما الضرر في ذلك.
أنا أتذكر، ولكني أتذكر بصوت عال، وأذكر بصوت عال... ما الضرر في ذلك؟
نح نباحاً احتجاجياً، وأشاح بنظره وأسهم بعيداً.
زعلت؟... ليس بهم.
ماذا أسميك؟
تريد أن تعرف اسمه؟ أي اسم تريد أن تعرف من أسمائي؟ أنا لا اسم لي تقريباً، منذ سنوات طوال، طوال... لم يناديتي أحد بأي اسم... عبد الجليل، أم مسعود سويحان، أم يوسف، أم رشيد الرامي.
يوفس...! حسنًا. لنقل اسمي يوسف، عالماً أن ليس فيّ من حسنه شيءًا. مرة سمعت نفسي يوسف عندما هربت عائلي من مدينة الجسر.
أنت كيف ترانى؟ لينك تقول لي شيئاً عن هيلتي، عن ملامحي. لقد نسيت ملامحي ووجهي، أيها الصديق...
الصديق؟
واستنست بكلمة صديق، دعني أسميك فرند، صديق بالإنكليزية.
فرند اسم مقبول. فرند، سأدربك عليه، خذي هذه قطعة من الخبر. كلها،
ستعود اسمك الجديد.
هيا يا فرند، علينا أن نسير... اتبعني يا فرند... ها ها ها...
أظه إسماءً ممتازاً، يصلح تماماً لحالتي... ها ها ها.
ضحكات.
تدهرحت ضحكتي على صديقي وسقطت في الرمل!!
لف عنقي خيط من الحنين.
الشمس على باب الغروب، وذلك السرب من الطيور الذي يبدو كشط نخيل على قرص الشمس الأكبر، حركك في رمادي، جمر الشوق.

لكم يشفقني هذا المشهد يا فرند؟
ولكم تثير في قاع أعمالي التي لم يطلها السحق، حزنا لا أعرف سره أو مصدره.

لعل تذكر لي لرميك، حركك في نفسي شجي الخييم.
وتشفت إلى شجرة السدر، أحسست برارة وأنا أغادرها، اقتربت من جذعها وقبلته، شممت رائحة عطرها. منذ ثلاثين سنة لم أقبل أحدا، ولم أضم بين ذراعي أو يضمني أحد.

كانت هدي في سنوات وادي أبو جميل في بروت، تفعل ذلك، كنت أعصرها وتعصرني، وأظلم بين نهديها عطرها، وأغفو خدرا من نفسها، بعد ليلة صافية.

غمرت على قدر ما طالت يدآ جذعها، قطعت طربونا من أغصانها الشانكة، ومشيت.

79
مشيت...

كنت أثقلت بين الحين والأخر نحوها، صارت تبتعد وتختفي في بدايات الورمة، أطلق فرند نباحاً، لكنه يبدع شجرة السدر الجليلة، ومشيما ليلياً كاملاً، وجهتي الغرب، صررت أفكر أن تكون دائماً وجهتي الغرب...

سميت نجماً في السماء سهيلًا، لا أعرف لماذا سميت! ربما لم يكن هو....

ثم لااح القمر، برع ضوئه من وراء الكثبان، لكانه انزلق على صفحة الليل وارتياح في صمت السماء بدراً. التبعت بضوئه عينا فرند، كان يمشي بمرازاتي، لقد احتز من مسافة ابتدعه عني مقدراً يؤكد الثقة.

بدأ الود يتعقد.

لم يعد يظهر من شجرة السدر سوى طيف شحي جالب في البعيد، خيط نحل بقي يشدني إليها، قلت في عقلي:

الإقامة المؤقتة، أوطان، يا الله، لكم أطرب حين أتمنى على اللفظة التي ترجم إحساسي، هي واحدة من خصائص القديمة.

كان عكاكي يسعفي على احتمال قدمي، ويسعفي فرند على تبديد
بعض وحشي، أو تخفيفها، وكتبت قبلًا قد ظننت أنني لم أعد أشعر
بوحشة أو بالغة.
لم يكن حمي فيفأ، يردد ثلثًا، عندما تعصف في بالي أصوات
الاستغاثات تحت الركام، تضطرب مشاعري، وتردوا نوائب من
الخواء، وأشعر بتبع شديد، كنت أضطر لأن أقف وأجلس، أرفع ساقي
بديء، عندما تصاب بالخدر الكامل، أمسدها، يجلس فرند بالقرب
مني الفرصة، يوزع تأملاته بيني وبين القمر، ويضحي بين الحين
والآخر إلى صوت يسمعه وحده.
لبنك تحمل عنى بعض حمي يا فرند.
نسائم الليل باردة تستف رمل الكثبان، لكانها لمصات نحات تQuotes
أجسادًا أنشوية. على مرمى بيصري، بدلت لي شلعة من نساء عاريات
يمن، وتظه منهن انزلاقات وانسياك أنوشية، هائلة الجمال،
تمتتع تحت فضا القمر، وعندما يحرك هبوط النسائم حبات الرمل،
لكن أغطية من حري بتزاح، فيبين انزلاق الجسد من تحت الإبط
 نحو الخصر، ينتن ليترفع مجدداً عند الرفرف وينسب مع الساق
إلى نهاية.
هي نهاية أوجاعي الدفينة.
يبدو أنني ما زلت أحترف أيضًا بشحناتي الرومانسية، ويخال.
هل شاهدت البحر مرة؟ لا أظن أنك رأيت البحر، انظر في المدى
خلفك، ليست هذه الكتبان أمواج بحر.
هناك بحر الرمل. فعل.. فعل.. ك. ك. ك. ك. ك. فأمسنت.
لبنك تعلم يا فندم كم أنا غريب.
لكي يعبر المرء هذه الصحراء عليه أن يستعين باللغة. اللغة خيل بعدو
بي، أو يمشي خباً في هذا المدى.
من الذي قال:
لكي تصبح إنساناً عليك أن تقطع هذه الصحراء، ولكي تصبح نبياً
 عليك أن تعيش فيها، وتغفو تحت شجرة السدر...
اتعيش بدني عندما راودتني هذه الفكرة، مثلما ارتعشت عندما
باتت على شجرة السدر. وتذكرت أن في الجنة مكاناً اسمه سدرة
المنتهى، فإلى أي منتهى يصل من حاله مثل حالي؟
تعلم يا فندم، لقد اشتهت لشجرة السدر، لتب الشحر يمشي، لكننا
مشينا ثلاثة.
تخيل:
إنسان أخرج، كلب وشجرة، يمشون في الصحراء! هل هناك أجمل
من هذه الصداقة والألفة، كلب وشجرة وإنسان؟ كلا كما بالمفرد. أنا
الوحيد مضاعف، إنسان، وليس إنساناً واحداً بل أثناان.
أعجبتُك هذه النظرية يا فرند؟
هذه المرة أجاني، وأطلق نباحًا احترازيًا. علمت في هذه الصداقة غيّر المتوقعة، أن الكلب ينبح بين الفينة والأخرى نباحًا مجانيًا، أسنمته احترازيًا، وأستأني بهذا السلوك، وهذا الاستنتاج.
يا إلهي!! لكأنني أصبت بدوار من النسيان. هكذا عبرت لحظة، كأنني دخلت ثقبًا أسود، نسيت من أنا، نسيت من أنا!! وأين أنا، أين كنت، وماذا كنت أرى أو أفكر، أو أهكي...؟ جمدت مطرحي وعينتي نفسني والجهات، وضة القمر، وانسدال حرائر الكتبان. ثم أدركت أن هذه الحالة صارت تصبني بعد ليلة الهروب، عندما صحت على جسدي غارقًا في دمه.
وبدا لي كأناي تعودت وضعي الجديد، هل تكفي أيام ثلاثة لتعودي
أو ترويضي؟؟
سبحالك ربى...
أمشي وليس أمامي هدف واضح تماماً، أو غاية. ولا أدرى لماذا
اخترت السعي غريباً لا شرقاً. الصحراء تمشي معني، لا أشعر ببدل، أو
شيء يوحني أي قطعت مسافة أطرها مما بقي، ولا أعلم ماذا بقي،
أو كم بقي للوصول!!
توسط القمر السماء، هذا يعني أن مشيت ما عادل نصف ليل آخر،
تسببت خلاله بعض الأفكار والرؤى والتخيلات.
عن لي أن أرتح، أنا أضع كيسي وعصاي جانباً. أن أفك عن قدمي
المعطوبة تلك اللفائف من الخرق، وأتحسس الرمال عاري القدمين،
ولكن خفت أن أأخذني النعاس. وأبتل في صباح اليوم التالي بحسدي
تحت أشعة شمس الله.
ليس في الأفق إشارات لتتحول أو تبدل. وليس من شجرة كنتي
ودعت، وطبيعة الأرض لا توحي حتى اللحظة باحتمال أن يعيش أو ينبت
شجر. فما كان علي إلا أن أسير، وإن خاب بعض ظفي بقدرتي واحتمالي.

85

Twitter: @ketab_n
شربت من ماتي واقتصادت.
نظرت إلى فرند كان يلوح بذيله، فاغبرًا شدته، بدا لي سعيدًا أكثر
ما ينبغي، لا أعلم سر سعادته؟ ّرّى هل لأنه التقى صاحب له، أو لأنه
عاد إلى طبعته ككلب، طبعه المهيبّة للمواكب، وإذا غدر مرة، فغدر كان
وفاءً للذي دِرّبه على هذا الغدر والسلوك.
أتمنى أن قدراتي الفلسفية بدأت تتحسن أيضًا. فضحكت على حالي
بصوت عالٍ. فوجي فرند، ورمحتى باندهاش متعجباً من إفراطي في
الضحكات.
قلت له سوف تعود على نصفي الآخر الضائع، الذي أسقيه الآن
ليعود إلى الحية، كما أنيبتي الذي يوجي لصاحبه بالبسات، ولكن بعد
أن يرويه تعود نضارته.
أعزِّبتك فلسفني هذه أيها الحقيّر؟
نبغ فرانيد ساركسي رأي وتتهكمي.
ومشينا.
اختزلنا مقدارًا جدًا من المسافة الفاصلة بينه وبينه، صار أقرب
من سافي المعطلة، التي أفدوها بدل أن تقودني، هل عرفت يا فرند أحدًا
يُمشي ساقه، نظر إليه. علمني أنه اعتاد أسمه الجديد (فرند)، ولم تكن
نظرته هذه نظرة استفهام عن هذا السؤال، أو المعادلة العجيبة... رجل
يُمشي قدمه؟ لا أدرى، ولكن منسوبي القدم زاد مقدارًا ملحوظًا.
وتمت الصحراء...
لكنها تتطلب، ثم أفردت جسدها لاستقبال العدم بكل مهابته.
مشبت بصمت، لا أسمع سوى وقع خطواتي وهي تهرس الرمل،
ولهات فرند.
الصومت حين تدخل الأشياء في سكونتها المطلقة، في هذا العدم المحسوس، تسمعه مدوياً. حتى حينما تأمل النجوم تحس دورانها،
أو إذا فلت من الأجرام نيزك أو شهب وذبح العتامة السماوية، تظن أنك
سمعت وحيحاً أو صغيراً كونياً.
أصبحت بنوع من الرهبة الجليلة، وارتعش بدني، أحس بي فرند.
اختزل مقداراً آخر مما بقي من المسافة بيني وبينه. لكنه أراد تحفيز
عزيتي، وتخفيض حملي النفسي وهربي.
أحسست عميقاً بنقل الرهبة في صمت هذا الليل الصحراوي
المديد.
القمر مؤلم.
ولكن ما رأيت في فضاء ضوئه في المدى سوى الهباء للمرة الأولى،
تجدد العدم.

87

Twitter: @ketab_n
تجسد الهباء أمامي لا شيء يوحي على الإطلاق باحتمال وجود آخرين غيري وغير هذا الكائن الذي استعار من أنس ألمتي ليؤمني وحشي، أو أني استعرت منه ما خسرت.

وقارنت بين هذي الليل وليلي السجن فاعتدت الميزان. نقل الفراق في كهف الصحراء، يواري نقل العذاب في ليلة زناية، عندما تبدد الآمال والأحلام.

هي لحظات عابرة تبدو ثقيلة، يبددها أمل ما بيشيء لا تعرفه، هو شعور بالعنور على أثر، كئل راحلة، أو على انتفاخ عجانبي لشجر، أو لعبور قافلة يدوي في الأفق على خط السد، يغيب حادها...

وعن على يال الغناء...

أعلم أن لصوني رئيا يرفع غيم الشجنفي خاطري، أو كان كذلك.
كانت هدى نطلب مني أن أغني لها من مواويل أهلي، وكنت أفعل وتصاب هدى بحالة الوجود.

أعلم أن لصوني وقعا بئر مواطن الحنين، ولكن هو أيضاً من الأشياء التي مانت في السجن. في طيات العتمة والنسيان، أو على الأقل مات بعضها، أو خفت الرغبة في استعادتها. كنت أردد قليلاً في سر، وأضحك لعامر الدبيبي مطرب السجن، عندما ينزل غضبه الناعي على مسامعنا، بأمر من آخر السجن الذي حول غناه عامر إلى أداة مبتكرة للتعذيب.
مرة سمعت بعض السجنين أردد موالاً من الشوق لأمي، فجزئي
إلى سيدته، وقال له، هذا الحصير يغني وصوته حلو يا سيدي. فطلب مني الأخير أن أغني له. كان مراحه معتدلاً على شرفه، وأمامه فتح من العرق، مترعً بألفلوج... وعلى حافة الشرفة تعبق رائحة الشواء.

قلت له ألا أشرب، فقلت ذلك دون تفكير، رغم أنه أحب الشراب، وإن كنت نسيته بعد طول سنين، فغضب وصاح بي:

لا تشرب يا قواد، كاسي؟ لا تشرب كأس سيدك؟ هل أنت واحد من الأوغاد المصابين بنوبات الإيمان يا كلب، تخف عذاب الآخرة، وهل تظن أن سيęقى منك شيء للآخرين؟ وجلجلت ضحكه وهو يرد بالصراخ:

بازدرا مقيت: لا يشرب الحرام ابن الحرام، يخف عذاب الآخرة.
ورماني بقدحه على وجهي، وأصاب روحي سهم آخر من الذل، فأتلت صدرتي وفتحت رائحة الإنسان. ثم طلب من حرسه أن يأتنو ببريق، عندل فيه العرق والماء، وسكب قدحا آخر، أوتوقاً يدّ خلف ظهري، شدني من رأسني إلى الخلف كذبحة، ووخرني ببخنجره في سلسلة ظهرية صرحة، وأراق في حجري كمًا من العرق، جحظته عيناي، وكتبت أكتب، فرد رأسني إلى موضعه بسرعة وتلني، هزيني من كفني، اجتاحني على مهل خدر، وكتبت أعرف مفعول الخمر، وما يهدنه في النفس، لكي لا أريد أن أشرب من يذ لك هذا الوحش، حتى لو أدى ذلك إلى إطلاق سراحني... كنت أتحاشى حتى النظر في عينيه، القادحين بشر، كانت تفرح منه نعанаً جيفة.

89

Twitter: @ketab_n
سأغني:
لا تشرب لأن الخمر حرام؟ ها...
لم أجبه، أردت أن أتركه في حيرة من قناعتي.
تخاف عذاب جهنم يا جبان، تريد أن تذوق عذاب جهنم؟ وصاح
بالحرس المسمر بجانبه كعمود إرسال، هات النار.
وحن عزمي، وشعرت بارتداء في مفاصل، وضعت نفسي.
جاه الشرير الأخير يسيح من على المشوى الذي يشوي عليه
زغاليله البهلوية تقريباً، كان مهووساً بأكل الحمام بمقدار هومه بتعذيب
الأرواح البشرية.
همست لأقول له أعطني من هذا وأشار كاكشل، لكنه خفت أن
يضاعف هذا الكلام من سخطه.
يا ليتي قلت.
خذ السيغ وغله في الجمر، طلب من الحرس، وارتفع القدح
كامل، وسكب الآخر، وقضم من جاع الخضار خيارة شديدة
الأخضراء، بعد أن غمسها بصحن ورعي في السحام وأنواع البهارات.
جاه الشواء بغرفلة حمر على لطى الجمر، انلهب الشفه السفلى
لمنظره الشهي، قال:
يا سلام على هذه الكائنات، سبحان من سؤال حماماً مشوباً.
وفسخه بتأنّفة فتصاعد حفر البخار، احترقت أصابعه قليلاً، نفخها بوق
فمه، ونفضها قليلاً في الهواء... مهمهما، ثم التهم زاوية من الفخذ بعد

90

Twitter: @ketab_n
أن نثر عليها بعض الملح والبهار، وصاح، صاح طرفاً نشوان لشهوته العارمة. الله... الله... ثم رشف جرعة من القدح، وأطلق ضحكه المجلجلة... يا سلام...

عداني...

شعرت بأنه عداني. اشتهيت أن أغمس خيارة في الملح، وأنبعها بجرعة من العرق.

على عجل انقضت هذه الرغبة، واعترتني الرجفة، عندما جاء الآخر بسحقة يتوهج احمراره أشد من الجمر. أخذته بأن تكون طوقوسي من مقصده، وصار يمرره أمام وجهي، وشعرت بحراوري تنفث إلى عقلي، إلى مسامٍ روحٍ حين حزه على جبيني، بغفرة.

آخ... آخ...

دوي صريخي يومذاك في أنحاء الصحراء، وارتحل السجن، صحت...

بعد قليل مبتلاً بالماء، وما زلت على الكرسي فباثه...

هذا. نخجل الهواء من حجرتيه، وسأل: ذفت عذاب النار؟ يا كافر، يا شارب الجمر.

ماذا تفضل، قدحاً أم سيفناً آخر؟

قلت له بانسحاق ثامناً: كما تشاء، وسكت لي قدحاً. وقال لي اشرب نخب السجن الصحراوي وسيدة الأعلى، وضرب كأسه بكأسي. كانت روحي على منزلق الفراق، وألم جبهتي يفع رأسى إلى فائقين تغلبان.

91
شربت القدح دفعة واحدة، وكأنني أردت به إطفاء إحساسي بالحياة. سكب لي قدمًا آخرًا، أيضًا، سكبته في جوفى دفعة واحدة، ثم بدأ التمثيل يسري من أصابع قدمي صعودًا، والخدر يسري بدوره نحو خلايا عقلية، وشعرت بحاجة للكهف، لم تكن نتيجة للألم الذي يشق جهني ويفلبعها، بل كانت حالة كنت التي كنت تتثبتي في حانات بيروت، سنوات الحرب، مع كل كأس في تلك اللبالي، كان يعلو عندي مزاج الحزن، الذي تزوجه أكثر لحظات الفرح، أو أي لقاء، كان يؤكس لنموه لنهايته، كنت أرى دائما نهایات الأشياء، مهما بدت ممتلئة بالسعادة ومستقرة ودائمًا.

لطالما كانت هدى نتفيذني هدى على هذا السلوك، وكان أقول له، هذا أمر خارج عن إرادتي. حين أشرّب، تتفقق في أعماقي نوازع تحرض على البكاء، وأستعيد صوراً أكثر مرارة من عذابات الفراق، وأتخيل عالماً أكثر جحوداً وتخلياً. قد تكون هذه الأمور من بواعث حزني، ولكن في حقيقة أمري، كنت لا أعرف، كنت أعلم، وأحلل، وأخفق وأقدّر. كنت أقول لها هذا من صميم وراحتي. وفي لحظات عجري عن التحليل، كنت أقول لها هل تريدينني أن أكون ممتلئا بالسعادة، حين أفتكر بصورة أخي مهدي، يجري إلى شدقي حيوان مفترس على مرايا من كل الناس؟ أو أفرح باحتراق بلدي، وتجفيف
ماتها، وشتات أهلها؟ هذا أنا، إذا لم أعجبك، إذا كنت عبأً عليك، تستطيعين تخفيض حملك، أنا في الكأس الثالثة، أصاب بالحزن. فسكب لي الكأس الرابعة، يطفئها، وبرد حماها، عتان طويل وليلة عالية من الجنس...
من أي جنس أنت؟
سأني وأضاف، تحدثني في الشراب يا كلب، سؤيت نفسك مؤمناً عظيفاً. يا تعلي، نعل... وصACH وصل...
هات يا ونش، والونش هو نفسه العمود، ذلك النبي آدم المسمر بجانبه على مدار الساعة، بمثابة ظله. ظلّ ممدد بحرارة الصحراء، كان يغفو بالطول ضعفاً، لكن بالبداية أقل منه تلتئم أضعاف.
هات... وجهه بإبريق آخر، عدل فيه دوزان العرق.
غبي، هو بالتأكيد لم بدر ما جال في نفسي، ولم يلاحظ في ملامحي سوى آثار سيخ النار الذي فلق جبهتي، وخدي جعلني مستسلمًا لكل ما يحول في نفسه، بدأ مهيناً للتحدي والمنازلة، إلى أن يسقط أحدنا مخموراً على قفاه...
لا أدرى من أين جاءتي تلك الحسارة والقدرة على التوازن...
خاو، وقد دمر روحي وجع وإن تبدد من خدر الشراب، بقي ينز في عظامي. شعرت بنشوة المنازلة. فعلقت.
مددت باعي، بيد متردة، لأتلقف حبة من الفجل، تميل بستوشها على حافة جاكي الخضراء، تعجب. تعجب لحرأتي، وضحك قائلًا:
كلٌّ، هات له فرح حمام، وتابع أغبيته:
يا حمام با مروح بلذك متهني...
خلبي أتّراح وأنت تغني...
آه يا حمام.. يا حمام
يا مروح...
لا يس بسوته. قلت: ربما السكر جعل صوته محتملاً، ولكن
لشهادة الحق فقط، كان صوته معقولاً، وطريعاً... إنّه لم يبق في بالي.
لكن ما حذرني: كيف لكاتين يحب الغناء، والخمر والتلذذ بالأكل، إلى
حد الإغواء والهوس، أن يكون على هذا القدر من التناقض.
كيف له أن يحرص بسيع النار جهتي، ويتلذذ عندما يهوي الجلاد على
ظهر عارٍ، سوتوت من أسلاك الكهرباء التي ترك فلفلاً ثم تظهر منه سلسلة
الظهر، ويتقنع الجسد هامداً على أرض لزجة.
هذا أمر بحاجة لتحليل شرقي، قلت، وحسنت أمر منازلتي، تحول
خديه إلى سلمة، ووجعي إلى قوة دفع وحقد.
اسكب.
قلت له.
ذهى من طلبي، وقال: يا وغد أنا سيدك، أنا... أنا. أنت ملكي،
شيء من حاجاتي، كخرافة أسس بها قفائي، كيف تجرأت وأطلبت مني،
 أمرتني أن أسكب لك؟ وفجأ... ثم أخذته غيزة فجاثية... رمي بعيه
المجمرتين في مدى الصحراء... وتابع غناه.. يا حمام يا مروح...

94
ثم سكب في قدمي باتزان من يبتين الالتزام، وسكب في قدحه كيفما اتفق، وجرع جرعة مشتاق.

سألت منك، فلت في نفس، رغم إحساسى بانعدام توازيين الذي اتصلى، كنت كالذي يجمع شتات جسده، لا أفكاره، حيث كنت أشعر بان أعضاء جسدي تصرف بمفعول عني. يدي تندد وتلتقط الكأس وحدها... ورأسى يسقط ثلأتين، على كفندى... جرفت النهر، بحجة تعديل جلسي كندم خصم، شعرت بالانعدام توازيين واشمال سقوطى، فعدلت.

تجشأت ونظرت في عينيه، كان يراقي كدانب يخادع، ازداد احمرار عينيه مقداراً موحياً بالإجرام، وشفته السفلي ارتفعت أكثر، وبشكل ملمحى، لكنه كان يستعيد حضوره بأوامره:

هات يا ونش... هات زغاليل. جاهز بغلول آخر احترق أكثر على الحمر، فسخ، نفح بورق فمه أصابعه، بردة فعل أقل، بلعبة أقل، بإحساس أقل، لكان الخدر وصل إلى أطرافه.

أعلم سر هذه الحالة، عندما يخفى الإحساس بالألم، وتأتي ردة الفعل متاخرة من جراء وخر أو احترام أو ارتدام.

لوح بهدء بشكل شاعري: لتذيد تحم الحمام... كله. وضحك. كلوا واهضوا هنيأا لكم بما كنتم تفعلون... وسكب في جوفه مقداراً، هذا ارتجاجات جسمه الهائل، الضخم، هذا، استكان كجمود صخر، وصل إلى قاع وأدى ترج وثبت.
تدري، قال:

"لو خبرت بين الجنة وأكل هذه الكائنات مشوية على الفحم، لاخترت جنة الشواء. هذه نعمة... كُل، كُل... لكأنه نسي أنني سجين، ونسي أنه سجن، ونسي أن مقام السجن، والجناة نفسها اعترتني. لكأنني نسيت أنني سجين، وأني أجمل أو أنا غرب السجن، رض السجن. وعندما سألته، هل أنت راضٍ عن دورك ومهمتك؟ بالطبع، جاء هذا السؤال تلقائياً، لعل جلسة الشرطة شكلت دفعاً لطرحه. "نظر إلي باندهاش تام، إذ بدأ كأنه لم يتوقع سوالاً كهذا. حتى زوجته ربما لم تسأله هذا السؤال الوقح.

هل أنت راضٍ؟ هل أنت معجب بوظيفتك؟ هل أنت سعيد أن تكون حارساً على حطام يرشى في هذه الصحرا؟ وتمتلك هذه الجنة الهائلة التي بإمكانك بواسطةها أن تستند جيلاً عرضا للاهتراء.

أنا تخجل؟

ألا تخجل من هذه المهمة القذرة؟ لا أدرى كيف أستقبلت هذه الأسئلة، ربما شعوري بالتحدي والمراهقة، حفز على أن استفرز بهذه الاستجوابات. ولكن طبيعة الجلسة التي طالت، تحتل أي سؤال.

رمقي، وقد مال برأسي الضخم على كتفه، وغطى شعره الذي انحدر على جبينه كفرح ساغرز، أطل التحقيق في عيني، وقد ثبتت عيني في عينيه، أطل التحقيق، حتى ظننت أنه لم يسمع أسئلتي، وقد سرقته أفكار تتردد عند شاربي الكأس!!"
تسمرت عيناه في عيني، حتى جسده استقر دون حراك على كرسيه.

يده على الطاولة.

ياء محاذيات، مرميتان عشوائية، قدحه مثال أمانه كشاهد أبك.

تمثال، أصبح تمثالاً. صنمجلاء، هائل... قلت في قرارة نفسي غلبتي

هذا الحيوان، بعد قليل سيقع أرضًا وأرفسه بنعلي... أنا نعل

بالنسبة إليك، أجبني. كيف ارتضيت لنفسك هذا الدور الوسيج ...

كأسك...

رفع كأسه، ضربت كأسي بكأسه، وشربت. رأيته يفرح إبريقه في

جهنه، عطلناً بدا لي كمتفقد للماء منذ أيام، وجفأوه به فجأة. قرع...

قرع... قرع، صوت العرق يتدحرج في حتجره... قرع قرع...

كماء ساقية ممتلئة بالحصى... وضع الإبريق بثبات على الطاولة. شدّ

على صدغيه براحتي ييديه لثوان، وزاغت الدنيا بي، حين رفع رأسه

بتمهل شديد، ونطحي.

هات، صرح، وغبت.

صحوت في اليوم التالي كمام مسجد معصم، إذ لفّ رأسى بخراق

بيضاء، بدلت لي كعمامة الأئمة... وعن بالي أن أوم المساجين، وأطلب

فهم خزيمة مسجلة، تحرضهم على اتباع تعاليم الحزب.

لماذا هؤلاء يفعلون بي ما يشاونون.

هل هو سامهم من دورهم الحقيبة؟ يجعلهم يتسلون بالأرواح، أن

بطلبوا من أحد منا أن يرقص عارياً في الباحة على قرع الطناجر. وإذا

97
رفض، يحسون مؤخرته بالفلفل، ويتركون لهذيناته يتلوى كشجرة عارية في الريح... ويصرخ... ويتخيل كذبيحة لم تذبح جيداً. كيف يتفنون في استحداث وسائل تسليةهم في التعذيب؟ يجلسون صفاً واحداً، ويفرجون ويقفهون، على عرض يصنعونه بأنفسهم، يعتمون على مؤخراتهم من الضحك.

هو السام... كل من جاء إلى هنا، بلاداً وضحية، سجاناً وسجيناً، هو مفقود ميدياً. أمل السجان بالعودة كأمل السجين بالعفو. السجن الصحراوي هو عقاب أيضاً للسجان... ألا تعرف ذلك؟ قال لي مصطفى شبلي.

فرصته الوحيدة لمزاحمة حضوره في الحياة، هي الانتقام من مساعد ووجود في هذا المكان.

والمسبون هؤلاء الأشقاء المتمردون، والخونة، والمعتقلون، الحثالة، هم نحن...

فكلما أبلع بلاها حسناً في الفتن، أصبحت فرص نجاحات محتملة أكثر، ويشعر بنوع من التعويض في كل مهمة تعديت يقوم بها، فيتحول إلى وحش مع مرور الأيام... وينسي أبه وأهله، معظمهم يصابون بالجنون، ويرمون في الصحراة للكلاب أيضاً... هل رأيت يقول مصطفى. هو يتحول إلى وحش يفقد مشاعره، حين يتسلل ليه، بينما يحكي لحمك إلى مطفأة سجائر، يبدع حقه على حنك وينشي.
«عرعر» تعني «عرعر»، ويشير إلى ذلك الرجل الذي يشبه الغوريل. محبوس في فقر في آخر باحة السجن... كننا نعرف الأوقات من صباهه. كان يصبح مثل الدبけど أربع مرات في النهار، وهو التوقف الذي بحبين له فيه فطامه وماده...

عرعر، كان اختصاصاً يرفع السجناء من روابهم وتعليقهم في جنجر السقف. كان يمسك السجنين من «نقرته» يفرس أصابعه في الرقبة، ويحمله كأنه يحمل هراً من فروة رقبته، ويدفع به إلى الحائط فيرتمم رأسه في الجدار، ليرتمي مرنحاً على الأرض... لقد جن عرعر، وتحوى إلى دفكاً، صار يظن نفسه دكذا، يصبح، وينفد الحبوب...

ياكل أكل المساجين، ونادو في الحمرات، مرة هبهم على آخر السجن وحمله وركض به... غداً يحملونه إلى قلب الصحراء ويتكلون. ومثله كثر.

لا أحد ينجو، القاتل والقتل، هنا متساويان في مصرهما.

ويدخل مصطفى في عتابه لرب العالمين.

ندخل...

ندخل... أرحنا، خلصنا.

يا... الله...

يرتج بدني... ويرتج الكون.

99

Twitter: @ketab_n
مال القمر نحو بدايات الأفول، النفت إلى الرمال... لا شيء، لا أثر.
يدل على شيء، يتبعته ذكرى مبعثرة على الرمال، وفرند نازور احتفالي...
لا أمامي، لا وراي، بقايا عظام لكائنات ضالة، أو لبشر تأهام...
وتحدها الكتبان مترامية نحو النهات، ولا أدرى لماذا كنت آراها،
or أنحنها أحساها أنثوية تعرض بهاءها، لأنشة باردة. تعرى القمر،
مستسلمًا للهروب الحنون الذي يحرك حريرها ويدحرجه.

هل ترى يا فرند ما كنت آرى؟
أين انتاك؟ أم أنتم مختبئ، مثل فرحان، هل تذكر فرحان؟ هل
تعذب مثلما تعذب فرحان؟ هل رويت لك قصة هيفا وفرحان
داود.

قال له (الضعيف) الجلد، فرحان ع شو؟ اسمك فرحان؟ فرحان
برجولينك يا كلب؟ تعرف لماذا جاؤوا به إلى السجن؟ بالطبع أن لا
تعرف. أنت تعرف فقط عندما يأمرك سيدك بالانفصال، كيف تنطلق
ورأههم، وتهش سيقانهم بمخالبهم، تعرق لباسهم، ثم لحمهم... أيها
الحقي.
كان (أبو هيفا)... أنت أيضاً لا تعرف أبو هيفا، تعرف صورته،

۱۰۱
معقلة في مكتب أمير السجن. (أبو هيفا)، هذا لقب من بعض ألقابه لدى العامة، تهانيسه به سراً.
هو سيد سيد أمير السجن، صاحبكم، لاحظت كم سيداً صاحبكم الذي فلق رأسه بسيك النار؟
هو الذي صفع أمي ووصفها بالقحة لأنها لم تزغد حين أعدم آخي. حكيت لك عن ذلك.
المهم. كان مرة يتجول في أحيا مدينة الجسر، وادي الدموه، مسقط رأسه، أو كان زيارته تفقدية للبلدة، وهذه واحدة من عاداته، وربما كان يفتح الجسر في بلدتي وادي الدموه التي صارت تسمى مدينة الجسر. شاهد شلة من النساء والفتيات يتعشى على ضفاف النهر. استوقفهن، وراح يتقضى عن أحوالهن وأخبارهن، وأرواحهن، يلافحهن، واحدة واحدة، يرث أكتافهن.. وصار يسألهن، إذا كان فرحانة بالتغييرات التي بدأت ملامحها في البلاد، وبالجسر الذي بناه، وبالسند الذي حوّل قسمًا من الصحراء إلى فردوس أرضي يحمل اسمه، وعن رأيه بقراره حول انخراط المرأة في بناء المجتمع، ومشاركتها في الحياة السياسية والحياة العامة. عن الأم المتعلمة، الأم المثقفة حزينة، كيف تربي النشء. إن هزت السيرمر بسمائها تهز العالم بسرارها...
"هذا لنابليون يا ماهر". كان يسأل ماهر.
وماهر حاملا حقوقه ودروى أومره وملاحظاته. ثم بان وجه من بين وجههم فضاحاً في جماله، ظالماً في حسنه، نخلة من نخيل نادر.

Twitter: @ketab_n
عيون مها، وقامة... امتشاقات ثم استدارات ممثلة. يعني: تلك هي الموافقات التي كان على استعداد كامل لأن يعيد النظر بأي قانون، تعديلًا، أو إلغاءًا، أو اجتهدًا في سن جديد، لكي يحصل على شرف خطب ودّها؟؟

أعجبتك هذه العبارة يا حقيبة؟

نبح فرند نباحاً خفيفاً.

وخذ أكثر من ذلك. كان على استعدان لإعادة النظر في روح الدستور.

هل سمعت بهذه العبارة سابقاً يا فرند؟ أيضاً نباح فرند، نباحاً من درجة أعلى، نباحاً يوجي بالاحتجاج، بدأ كأنه مخلص للدستور والقوانين العامة!!

حقيبة، حقيبة أنت أبها الصديق...

المهم. عندما لمج بهاء ذلك الوجه الذي يمثل له دروة الاشتاء، انخفضت هيئة السلطوية، انخفض منسوبيها بشكل ملحوظ، صافحها مرحباً بها يشفج موهبه، يشفج عرضي، وأطأ المصاحفة والإمساك بدها، يا هلا، يا هلا، يا هلا، يا هلا.. وسألها عن العشيرة والأهل، وإذا كانت ذات بعل. أجابته وقد طفح وجهها احمراراً. أجابته يتحبل ورهة، عن كل شيء، وعن بعلها الذي يدرس الأدب في كلية الآداب في العاصمة، والذي أعفي بمرسوم خاص من الذهب إلى الجبهة.

وشكرته على احتضانه للأدباء وافساح المجال أمامهم في العطاء...

103

Twitter: @ketab_n
ربت كنفها ومشي. خطأ خطوتهين وعاود النظر نحوها، لكنه وجد
التدبير المناسب، ماذا قلتي لي اسمه؟
أجابه باعتبان: فرحان، فرحان داوود.
طلب من مراقبه ماهر: سجل، سجل اسمه، فرحان داوود، ما
شاء الله ما شاء الله. اسمه على اسم النبي داوود. وضحك ضحكه
التي تشبه توقيعه على مرسوم. ضحكة مذروسة بتان، تخفي ما تخفي
وراءها من نوايا. خلع نظارته، ورمى بنظرة تأملية في ماء النهر، لكأنه
تذكر واحدة من حكايات النبي داوود، أو أنه استلم من النصوص
المقدسة أمر التدبير.
انتقل فرحان داوود، عشبية ذلك اللقاء أو عشبية جولة القائد النفقي،
من كلية الآداب، إلى الجهة التي يحاضر في الجنوب، ويقرأ عليهم شعر
الحماسة.

هكذا جاء في المرسوم، أو في مذكرة التبليغ، رقم ١٨٦٠:
«يُبَلَّغ على الغور، ولأغراض قومية، الدكتور فرحان داوود، من
مكتب عمله في كلية الآداب، إلى الجهة، لأن المصلحة العليا تقضي
الاستفادة من موهبه في تحفيز وصد عزيمة جنودنا اليوسوع ومقاتلينا
الأشواص، من خلال قراءة شعر الحساسة خاص فحول الشعر في أمتنا
المجيدة، ويزوّد بقصائد، من أشعار القائد حفظه الله».  
انتهى

١٠٤

Twitter: @ketab_n
ملاحظة: يمنع من الإجازات حتى انتهاء الحرب التي سنفور بها بعون الله وبحكمة القائد.
في تلك الليلة، لم تعد هيفا إلى بيته. ولم بعد فرحان داود إلى ما بعد أمنية الحرب. عاد إلى بلده، مدينة الحسيمة، وادي المسموع، وكان الخبر الذي شاع، قد أتلف عقله، مثلما أتلف الهجر البيت، بيت أهله.
توفي فرحان. كان يمشي حافياً شمال عار، في الخلوات، يغني .. قصيدته الشهيرة:
مين أنتو ما تخونو ولو كنت خوان
هيدا زمن لا رجاء فيه هيدا زمن خبيان...
ذاع صيت القصيدة، وصارت أبائها مضرب مثل على كل لسان.
أيام قليلة اختفى فرحان داود، لم يعد أحد يسمع صوته في أنحاء البلدة، حتى الرعية في الخلوات، افتقدهوا.
قصيدته هي السبب، هكذا دارت الأحاديث وتناقلت الألسن. لقد وصف القائد بالمخلوق المختصي، تهامست الأفواه هذه العبارة بحذر شديد.
فمن يجرؤ على هذا الكلام. لقد جن، فالذي سطر مذكرة بنقله إلى الجهوة، يستطيع تسطير أخري، بتهمة تكفي لأي يعطي ما بقي من حياته في السجن الصحراوي... وهكذا كان مع توصية خاصة بانتزاع رجولته وخصائه.

105
وجاهه "الضبع" الاختصاصي الأبرع في إذلال النفس، وتحطم الروح...

وصاح: "فرحان داود؟ فرحان برجلينك يا نعل..."، وغاب.

فرحان مع هذا الكائن المروّع، في غرف التعذيب، ليصبر نصف إنسان... نصف رجل، يجترّ ألحمه الغائر عميقاً في شايبا روحه.

بعد أيام، جاؤوا بزوجته، عزّوها أمامه... وسأله:

- تعرفها؟

وكيف لا يعرفها. سقط أمامها كعباءة مهترئة.

- أراد القائد أن يكافك على قصيدته.

لم يسمع، غار عميقاً في الدهول، وانفصل نهائياً عن العالم.

وغانتما جاؤوا بي في تلك الليلة العميق، صرخ مصطفى شبي في مناجاته... طلب من الله أن يتدخل ليحسن الأمر، فارتج السجن.

ارتج الكون، وأصيب بالصداع، عندما غروني...

مررت عشر سنوات من تاريخ التحاقه بالجبهة حتى ذلك اليوم.

هذه قصة فرحان داود.

على من تقرأ مزامرك؟ يا أنا...

نظرت إلى فردته، بدا لسانه أطول مما كان عليه... سألته:

عطشت. الظاهر أنك عطشان. وماتي لا يكفي لعطيك واحد، كيف لعطيكين. ها... ها... . ابتلع الهواء ضحكتي، والشفة السكون على حلقي... كنت أبدو أكثر توازنًا، لنفسي، عندما أهيمك، وأكثر احتمالاً.

106
تلك طبيعتي الساخرة، القديمة، التي أحبها. هي واحدة من طباعي. هي المفضلة عنتدي، ولكن ما إن تعودني حتى يغليها خوائي.

كانت تلك الحكايات، حكايات رفقي، عندما أتذكرها، تضاعف حلمي، وأشعر بالألم الذي يطال مكاناً أعمق من الموضع الذي يصيبه السوط، وعندما استعيد ما حلّ بي، أو ينفذ إلى ذاكرتي من خلف غبار السنين والنسيان، أصاب بنوبات عصبية تفقدني صوتي. لا أقدر أولا أذكر شيئاً، من عوارض تلك النوبات، سوى بدايات إحساسي بغضب وصرخات وشائرات أطلقها على نفسي وعاهتي، وكلبي...
كان صوتي حين أروي حوادث، أو بالأصح أنذكرها بصوت عالٍ، يسلماني، وينسيني ما أنا فيه. ولكن سرعان ما يتبُّدء هذا كله، حين أسكت وأنامل في ليل الصحراء القمرى، وبغيض منسوب الصمت والوحشة. كان فردنا يبتغى أو يماشيني، يجفل أحياناً من هلوساتي وصياحي. وقد احتفظت له بالعلبة المعدنية.

عطشان؟

رمختي بنظرة ذبلة، سكتت له الدماء واقتضدت، ملما أقصد لنفسي. ليس هذا بخلاً، بل تدبير احترازي أو وقائي، ومن ساواك بنفسه ما ظلموك. يا الله كم هي عظيمة هذه الحكمة.

ولكن كيف هذا، أين العظمة في هذا الكلام؟ أي نفس تساوت مع نفس أخرى؟

هل ساواك جلادي بنفسه؟ صفعة بصفعة، وساطاً بسوط، ورفسه نعل على الصدر برفسه نعل؟ لا. لا أريد أن أنذكر ذلك، كنت أحاول أن أطرد هذه الأفكار والمشاهد من راسي. ولكنها تلبخ وتتمثل أمامي.

109
وأنت هل ساواك صاحبك آخر السجن بنفسه؟ هل كان يطعنك من طاعمه، ويشيرب من مائه، وبأخذك في رحلته إلى الصيد؟
بدأ يتصاعد مراحي الماساوي، هكذا أحسنت وأنا أساله:
كيف ستلذب أمراً بما لا يكفي له، وليس لنني آدم وكلبه؟ أفضل أن أصحح وأقول: بني آدم وكلب. أنت لست كلي، وأنا لست صاحبك.
فهماً، فهمت يا حمار، وبدأت بالصراخ، ولم يكن من داع على الإطلاق لصراخي، ولكنك شعرت حينها أنك بدأت أتصاعد. أو بلدت أحمدو وانحدرخ، وإذا لم أرتضي بشي، فسأتي برذحج نحو مكان مجهول، وكان صراخي هو اصطدامي، اصطدام نفسي بنفسى، أو نفسي بالعلم.
لا أدرى فعلًا، لماذا هاج انفعالي، ورحت أصرخ وأشتم نفسي وكلي، وتعرى الذي بدأ منذ ولادتي نبض، في تلك البلدة الملعونة التي طرداً منها إلى مصائرنا بعد مقتل أخي مهدى.
ولا أظن أن مسألة الزود والأعمال هي السبب. قد تكون ذريعة لاواعية.
ولكن ما فكرت فيها، أو فكرت بطول المسافة، وهل تكفيفي أو لا تكفيفي للموصل. فعندما حملت ما تيسر حمله ومشيته، لم أمش على بيئة أو مخطط لمسار واضح. ولم تأتيني أي فكرة، بعد مضي يومين وليلتين، عن المكان الأول الذي سافتون إليه، انتذكره، قبل أن أضعه مقصداً نبلاً لسعني العلمي!! هناك أمكّنة كثيرة في ذكرتي، بعضها

110

Twitter: @ketab_n
فأصبح يتوعّم من الانحاء أو التلف، وإن كان بعض ملامحها ليلًا في البال، كنجم يظهر ويخفيف خلف جبال الغيوم...

كنت آخذ عينيّ وأحاول استرجاعها كاملة، فأصاب بالخسراً...

وأتلفت... وأشعر أنني مشتاً لشيء. شعور يموض على عجلة وغيّب يختفي، أتَّبعت يتفرّع خلف ضباب الكيف بيتاً وامرأة، وصياً بلهو عند عيني البيت سرعان ما يختفي، فأصاب بالفراغ الكلي، فأصفر، وأصفر، وأجد في المشي، وتختلط على الجهات، ويختلط على وعيي بحسدي، أجر قدمي خلفي كسلاح جندي عائد من الهزيمة، وأشتم صانحاً باكيًا، رأسي مرفوع نحو السماء بلهو ونلوج فيه أو تعصف فيه أصوات فجائعية.

كان صوتي يوحي لي أي أتلفت، وما كنت أتلفت حينها، كنت خدراً، فقط كان يوحي بذلك إلىّي وحدي، وليس من مسواي في الأصل هنالك، أو هنا، لكأنني أصفر من أجل الصراخ، أو أصفر عليه كي يهدأ، ولم أفعل في تهدئة ثوري، صار يخلع عندي مراح لعين، مراح حافة الهاوية نحو الجنون، ما جعلني أعنف راكعاً، أفند وأرفع يدي متضرتعاً نحو ذلك النجم الهائل البريق، والغ.OrderBy في السماء نحوه، هو في جهة من تلك السماء تحيط به جميرة من النجوم، مختلفة الأحجام والمبرق، الأصغر، فالاصغر، فالخافت والاذاي، لكأنا سلبي عائلة واحدة ذات فروع وأصول ولها ربع.

خفّ تصاعدي، صرت أنحدر، وأهدأ، على مهل، انخفض

111
والله... حتى بدأت أستعيد نفسى من شتاتها، ووعني من تشظياته.

... ووجدت هكذا جائياً، رافعاً يدي نحو سماء الله، معيناً في لمعان النجم. تأملت ما أنا فيه.

بدؤت لنفسي مثل إله وثني منسقي في هذه الصحراء، في هذا العراء، استعنني من الإتقان والتحظير، أبقي عليه ليذكر الزمان بالضلالات أو المسامرات، هكذا بدؤت لنفسي مثل إله وثني صنم. استأنست، وراضتي تلك الفكرة. وافتكرت باللات والعزي، وأصناص أهلي القدماء في الجاهلية، وقلت لو مرّ بي أحد، ورأني، لعُبدي وقدّم لي الطعام والبخور والأضاحي.

هي عوارض «حُكَمَيْنِ»، أو حقتي. قلت.. هي هلوسات من مثلي.

بقيت لوقت رافعاً يدي نحو السماء. رأسي جان على كتفي البسر، وعكاري أمامي مغروس كوند في الرمل.

رآيت ظلي باعتياً مرغياً جانبي. ظلّ ملتح، رآيت ظلّ لحفي يتحرك...

يحركه نسمه حرام في بروده.

رآيت ظل بدين. يدين متضرعين. مهينتين، لاستقبال الرحمة، أو الوحي، أو طلب للغفران أو النجاة...

ما هذا الذي أنا فيه؟ سأكل، وهل أنا مهياً للشطحات العالية في سبر أغوار الكون، ومجاهل النفس.. هل أنا فرخ نبي؟ وصلحت
ضحكتي... عادتي التهكم الذي وحده يشفع بحالي في هذا التهكيم الغاوي حتى داخل الذات. وعدت إلى بدايات التفاني لذاتي الحاضرة في هذا العراء، ذات السجين الذي مشي، وصار له صاحب.
... وتذكرت فرند، انفضست، النفث أمامي وخلقي وعلي يميني
ويساري.
لا أثر لفرند...
ظنت أنني كنت في حالة من تلك الحالات التي تقصيني عادة،
وتختلط عندي التقديرات، وأصبح في شك من أمري، وأسألي: هل ما
حدث معني، هو وهم أم حلم أم حقيقة؟
أيهما الحلم؟
أيهما الحقيقة؟
هل كل ما صار، ورويت؟ هل كل ما مر بني وتذكرت بعضه ورويت
عن بعضه، صار فعلاً؟
أم ما أنا فيه الآن، ما أععشه، ومن هذه اللحظة ستبدأ الحكاية،
لأروي عنها؟
رجل وجد، أو وجد نفسه جالساً على ركبته وسط خلاة نام صحراوي
في ليلة مقمرة، ساهمنا في نجم غاوي اللمعان محرض على التيه،
رجل ظن أنه نجا من السجن الصحراوي بعد تمديره، وأصبح برفقته
كلب، سَمَّاه فرند، صار يقص عليه حكايات أهله ورفاقه؟

115

Twitter: @ketab_n
أم رجل بدأ الآن حياته. تماماً في هذه اللحظة. هكذا خلق، هكذا
ولذا وجد نفسه دفعه واحدة في كهولته. هنا في cette الصحراء. في هذا
الليل الممطر المعرفي لبعض الوقت والكثبان. لا يعرف من أي أن، ولا
إلى أي يمضي؟ لا يعرف من أي به؟ ولماذا دفعة واحدة قدف به إلى
كهولته وإلى هذا المكان؟

رجل ناقص مطروح منه عمر مديد...
رجل لا نفع فيه، لا يصلح، سوى وليمة شحيحة لطائرة ضلل سره.
من أين؟
من حملت بكل عمري الماضي إلى هنا؟ وكيف تبدلت سنواتي
دون انتباه؟!

ارتمت نداءي تلقائياً من تضرعهم، على الرمل البارد.
ارتمت عساي، من تلقائهما، لكأنها بد ثديه تحضنني.

أحسست بارتخاء فظيع في جسدي، وبخدر يسري من أصابع
القدمين، ونبضات ما راودني مرة على هذا القدر من الإحساس بالغيب.
لكني استخدمت بعض الحوافز، كان أتذكر بهاء القمر، وقلت لأمتحن
صوتي، ليس بالكلام، أو بالغناء، أو ما شابه ذلك، بل بالنباح، مثلما
كان أهل الصحراء يستبحرون حين يقعون في النوبة، ترددت، وأحسست
أن النباح في تلك اللحظة شيء معبب. ليس معيناً تماماً، بل لا يصلح
للامتحان! هكذا قلت. لماذا لا أجرع صوت الغنم، وافتكرت بصوت
الغم، بالتغاء. وذكرت تلك الحكاية التي روتها لي أمي عن أحد

116

Twitter: @ketab_n
الأنيبياء، إبراهيم، حين حمل ابنه ليقدمه ضحية، أو ذبيحة لله، فاعتقد
إلى كيش افتدى ابنه، وصار الغنم أضاحي.
لكن يختفي من الغناء في جمل ذبحه لله ما في هذا المفر. اسمه
إله الصمت. ولكن أي بد نأتي للحلي وسنحت من فكرتي.
وقلت لم لا أُجرِب صوت الماعز؟ لكن أيضاً تلك الحكاية عن
الماعز لم تشجعني، هي أيضاً واحدة من حكايات أمي، عن أحد الأنيبياء
الذي اختبأ من أعدائه وسط قطيع من الماعز الذي تشتت، ووضعه
لأعدائه، لينال بعد ذلك عقابه بغضب إلهي جعل من عورته مكشوفة
كلافضحة إلى أبي الأبديين.
أيضاً، أمر تقليدي لصوت الماعز لم يعجبني، ولم أستحسن به، ليس
لخوفاً من غضب ما يجعلني مكشوفاً، ثم ليس من كائن مكشوف
أكثر مني في تلك اللحظة. ورغم أنني ميلاً للغناه، أو بالأصح، ليس
للغناه، بل لتلك الحكاية الأخرى عن الغنم، الذي يتم، على جسد
النبي، وحبه بعد أن فضح أمره الماعز، فكافأه الله بملك الآلية الساترة
على عكس الماعز... بل رغم ذلك، لكان مزايا أصيح نباتياً، بعد
استعراضي لأصوات الكثير من الحيوانات، كالصهيل الملاهاً، لنكن أمري
يبدو سخيفاً، أن أصيح كمهم. أو آخور كمجل، أو أموء كطق، ولا
أعرف، لماذا كنت ميلاً، مفضلًا لذلك الصوت الذي يشبه العواء، ليس
كعواء الذئب، أو كلب جريح، أو ثعلب مخادع. عواء آخر، موغلب في
ذاكري،
هو صوت كنت أسمعه في سنوات طفولتي، عندما كنت الريح تبدأ
مراسماً جنائزياً، في تلك الجبال والكهوف، وهذا أمر عسير على
الفهم، حتى متي، وتقديدها أشد عسراً.
عندما كانت الريح تتشن في تلك المواسم، على سفح الجبال، تبدأ
مراسماً غناء، ومناحبات تختلط بصهر يخرج من فلقات الصخر، ومن
الفتحات، وأخرى على شكل الغواص، الأشيه يعوين النساء في لحظات
الفجيعة.. هذا أمر عسير تفسيره وتقييده، كتي فعلت وعويت.
عويت. عو.. أو...
عويت.. أو... أو... أو.. عو...
وأدركت لنزو وبلحظة خاطفة وبقينية أن عواء الإنسان في التجربة
القصوى من التخلي، أشد مرارة ونواحاً من عواء الريح في جبال
الغرين...
أو... أو... أو...
طويت صوتي حلقة السكون.
سقط من النجم مقدار أعظم وأقل من الصمت، ودوى على جسد
الصحراء...
فسكت.
صرت أتلفت في الأنباء، مدركًا لفعلي، لماذا كنت أتلفت. كنت أريد أن أؤكد حقيقة ما مر ببي. كل ما حدث هو حقيقة، وليس حلمًا، أو غشاوات صور تشبه التي كانت تأتيني في لحظات غياباتي في السجن...
صرت أتلفت وأعوي:
أو... و... و...
جاوبني، جاوبني عوائي، تردّد صوتي في مطرح بعيد مني، آتاني بعد وقت ليس بقصير، عوتي ثانية... ورحت أصغي نحو مركز تردّده الذي بدأ لي كأنه من واد سحقي... واد يفصل بين جبلين عمالقين...
وليس من جبال في المدى الساحلي أمامي.
وانظطر أكثر مما انتظرت في الجولة الأولى، لا جواب لصوتي، أو لعوائي.
قلت: تلك تهويات... أو الحاج للرغبة في ذلك، في استعادة ذكرى من هذا النوع: عندما كنت أصرخ أو آتاني على كتف الأولاد وتردد صدى.
لكنه تردّد ثانية، بعيدًا وخفافًا وموجعًا...

119

Twitter: @ketab_n
لم تكن تهويات، ما أسمعه هو حقيقة. ولكنه ليس صدى لصوتي،
هو صوت فرند، الذي فر على ما يبدو عندما جاءتي نوبة جنوني،
وهذياني، خاف مي، وتركتي، ليتنجو من سخطي.
رحت أناديته، بلغفة من أصاع وليفاً، ووقع على أثر له.
تبعت مصدر صوته...
فريد لا تخف، أنا لن أذهبُ، أنت صديقي، أين أنت؟
أو... عو... أ... من بعيد من خلف كتبان متراصعاء كان يتأتي الصوت.
وجدته، رأيته منطوبًا على نفسه، خلاف كتب، برجع، أحس بي،
فاجمع أكثر، انطوى أكثر، دفن رأسه بين ساقيه، لكانه ظن بي سوءًا. أن
أموي يعكاري على رأسه. لكنه بالتأكيد أشتم نسي، ولهدئتي. ومثل هذه
الحالة من الامتثال المتقنع بالخوف، أو بالظاهرة بالخوف.
اعترفي. اعتذرت منه.
ما كنت أقصد أن أجرح شعورك، لعلك تقذر أنني مررت فيه واحدة
من تلك الحالات، أو اللوبيات اللعينة التي تققدني صوابي. أقررت منه
أكثر، نظر إلي بطرف عينيه، ما بين الحذر والاطمئنان، هكذا بدأ لي.
لا تخف، وهو تخف من كائن مللي شديد الهشام، والهزال، ليس
بمقدوره سوى الكلام؟ مصدت برحتي رأسه ثم مررتها على ظهره،
مكرراً اعتذاري من نوبة جنوني التي جعلته هدعاً مني.
لا تخف. كيف تخف مني؟ فكيف الأمر لو مزنا وحن، تركني
لشذفي وتولي...؟

120
ولو!!
عاقبته.
صرت أمسك جسده برحتي، بدأ منصرحاً لفعلي، وعندما شعر بالأمان وارتضى اعتذاري، عضّ يدي برفق، عضّها بمداعة، لكن بندي طاحن وتوّجست. اكتشف بهذا الحمّار من المداعة، ثمّ تعطى وقف. تناوب وانتفاض.
وينبح نباح الود العظيم.
وقف أمامي. نظر في عيني وينبح ثانية، كأنه يبكيّني، أو ينسوني بعيد تكرار صياحني، وألفى المسافة نهائياً بيني وبيني، وكتبت سابقاً في توددي عندما لسته للمرة الأولى، وحكى له رأسه ورفته. ثم قام بحركة استعراضية ما كنت أتوقعها على الإطلاق، حيث تركيّ وزاح بعيد نحو البعيد، لكنه في واحدة من وظائفه القديمة، كسبق للطبيب والكوايس، أو كمطرد للهاربين من السجن.
وغاب في الليل الفضي الضوء... حتى ظننت وانتابي الرب أنه ودعني وتركتي لصبرك، كي لا يقاسمني زادي وماني. أصبت بحالة من الذهول، لكنني تذكرت أنه قد فعل هذا ليلة أمس، وقفت في نفسك، لا بد أنك اشتم رائحة ما. صارت تراودني أفكار سوداء.
تري هل شم رائحة صاحبي؟ ولكن صاحبه رأيت نصفه يتدلى من النافذة!!
هل يعقل أن يكون أحد سواي قد نجا مثل فانطلق لسلافته؟ أو ربما
اشتهر رائحة فريسة ما؟ أين اختفى هذا الكائن؟
لم أفقد حسن ظلي به نهائياً، ولم أستسلم لأي فكرة أو توقع... بقيت
أنظر إلى النقطة التي غاب فيها عن نظري خلف تدرج من الكتان...
بعد قليل بدأ في المطرح نفسه حيث أراقب، عائداً بسرعة أقل، وعندما
بدأ يقترب مني شاهدت في فمه شيئاً، وصل، رماه أمامي، إنه طائر
حمام، في عنقه طوق وفي الطوق محفظة بحجم علبة الكبرييت.
تذكرت لنزو تلك اللعين الذي فق جبته بسيع النار. هذا الطائر
كان واحدةً من سريه. كان الحمام أكملته المفضلة. لمرات في الأسبوع
كانت تبع رائحة الشواء من علي شرفته، حيث حاولوا بي مرةً إليه
لأتي له فرضت، وانتهت منازلي معه بضربة قاضية من رأسه على
جمجمتي.
كان بعض أقارب السجناء يبعث إليه بهدايا، أقفاك من الحمام،
لبحسن معاملة أفرادتهم. وكان هناك سجين اسمه فالح، والمعروف عن
فالح، أنه كشاف حمام وحرامي، هذه من خصائصه، العدونة في سجنه.
أما تهمته فتشابهة مع معظم التهم - متآمر على أمن الدولة... وقد كلفه
آمر السجن أن يهتم بالحمام، وخاصة تلك التي كانت تأتي بأقفاك،
وتحتاج لترويض كي تتألف مع فضائها ووطنها الجديد الذي لا تدوم
فيه كثيراً، لأنها سرعان ما تتحول بعد أيام إلى وليمة على شرف تلك
العين.

122
صار فالح يقضي بعض وقته على سطح السجن، يطعم الزغاليل، ويعلمه على المتن، أو التألف مع هذا العالم العجيب، حيث لا شيء هناك، ولا من كان سوى هذا المبنى المزروع في وسط الصحراء، وفي داخله أرواح لأطباط آدمية، وعلى سطوعه أفطس، مغطاة بسموع نخيل.
كان أمر السجن لا يعرف عدد سجنته، وعديد السجانين والحرس وتواضعهم فحسب، بل كان يحضي يومياً أعداد الطيور في سرب الحمام، الذي يزداد ويتناقص حسب شعفته.
كان شديد الحرص على أن يحظى سربه يومياً من على سطوح السجن. وكما تراه أحياناً من الباحة، حيث نخرج إلى يوم الشمس، واقفاً وبالقرب منه فالح، يشير بإصبعه نحو السرب الذي يطلقه في الفضاء، ويوجه فالح بخراقة سوداء على رأس قضية طويلة يلتوّح بها، ثم يأمر فالح أن يعدّ طيور السرب، بدأ فالح: واحد اثنان ثلاثة أربعة. عشرة. ثم يخلط السرب ويضع العدد، فيصفوه، قائللاً: أنت تغلط بعدد أصبع يدك الواحدة يا غبي ويركله، فيسقط، وينهض كتباض قائللاً:
أظن بين الأربعين والخمسين.
أيضاً، هذا نوع آخر من ابتكارات التعذيب التي اخترعها، كانت واحدة من عاداته في لحظات سامه. وكان هذا النوع يطال الجميع دون استثناء. فلذا يستطيع إحصاء أعداد الطيور في السرب، يكفاً
بجلسة كأس من العرق ... بالتأكيد تنتهي بمذلة مروعة. أو أن يراقبه من يستطيع ذلك في رحلة من رحلاته في أيام الصيد. كأن يتبه مثبته وهو في سياق عسكرية، يحمل له كرسياً وطاولة وبرادًا صغيرًا من الثعلب والماء وزجاجات من العرق اللبنانية، كان مولعاً بالعرق اللبنانية. وكان بعد رأسه من نافذة الجيب، وليس من وقع عليه الحظ، أنت تجسح السجن أم الحرية، يا فلان ... والجواب المتوقع دائماً: المطلوب دائماً، الحرية ... فيضيف، هذي هي الحرية ... أمشي، ويهتز جسمه الهائل من الضحك ومن ارتجاعات الجيب.

كانت تلك هي المكافأة، ولكن قلة الذين حظوا بها، وندموا وتموا لو أخطأوا في التعداد أو تأهؤا عن ذلك، وفي الواقع من أصاب منهم العدد الصحيح، أصابه بضربة حك، فحين يبدأ بالتعداد ينتهي ليقول رقمًا معينًا تقديرًا للتخلص من مهمة، تناغيها مأساوية في كل الأحوال، فكان ينجب من مقدرة من يفوز، وتشكل في مسلكيته، يتأمل فيه طويلاً، مرن؟ ويسائله: كيف عرفت؟ والجواب المتوقع، عدتها.

عددتها، أم قال لك هذا النحس فلالح؟ فقسم فحال نفسه الشهير:

ووافق هذه السماء بدون وتد، لم أقل شيئاً.

كان يفتح راحة بدء ويعبث أصابعه، ويتغطرر الرأس من ناحية الصدغ، ويعصره، للحصول على إجابة صادقة، وتأتيه دون ترد. حيث إن الإحساس بإمكانية احتراق أصابعه كالنار في الرأس، فوي وكاف للاعتراف الفوري.

134

Twitter: @ketab_n
- ها، «ينقع» هاها من خياشيمه، كيف عرفت، عدتها أم هذا تقدر؟
- نعم. قدرت أن العدد أربعون.
- فرت.
وبدأ رحلة الصيد. ويا ليتها لم تبدأ. كان السجنين ينظر لأيام بعد عودته، محموماً، لا يقوى على تحريك يده من مكانها، أو إراحة قدمه التي لم تعود قطع هذه المسافات عدواً.
جبان ذلك الكائن.
ذات يوم غير بعيد عن ليلة تدمير السجن، عن ليلة القيامة، كما أحب أن أسماها، تلك الليلة التي أصبحت تعود عنى أياماً ثلاثة، فقد طائران من السرب، زوج حمام.
وحين سأل فالح عن مصيرهما، قال له لا أدري يا سيدي، هذه نفوس طائرة وكل نفس ذائقة الموت، لعلها ماتت في هذه السماء. ضحك ضحكه المجلجلة وارتتج بدن الهائل، وقال: والله يا فالح ما كنت عارفك، فقيه وورع و... كل نفس ذائقة الموت، أم ذائقة الحمام يا فالح؟!
ظن قائد السجن أن فالح تذكر أمر زوجي الحمام وأكلهما سراً...
وتمت عملية الشواء على السطح، تفقد السطح، استنفر الحرس، وسأل إن كان أحد شم رائحة الشواء، في غيبانه من غيبانه في الصيد؟ تقدم منه وشم، شم نيبه، فتش بين أسنته عن احتمال وجود بقايا!

۱۴۵

Twitter: @ketab_n
الحمام يموت أيضاً، لا يُذبِّح فقط ويشوى، يموت مثل كل الكائنات. قال فالله، حين غرس ذلك اللعين أصحابه في صدده. وأطلق قسمه الشهير: والذي رفع السماوات بدون وند، يمكن طاروا، وما عرفوا يرجعوا...

و هذا ما حصل، بالفعل. طارا بعد أن حُتِلُهم رسائل إلى أهله. تركه. ليس يدافع الرحمة التي دَبَت بصورة مفاجئة، بل تسيمه بالاحتمال الذي قاله فالله، وأمر بتحضير العشاء على الشرفة.

فالله، كان قد سمع بالحمام الزاجل الذي يحمل الرسائل ويقطع الفلوات، وعرف أن الحمام يعود إلى أوطانه، وفخطر بالله عندما جاء أحد أهالي المساجين يقفز من هذه الطيور هدية للأمر السجن، أن يحمل لزوجين منها، رسائل لأهله، فعله. خط رسله ليلاً؛ صنع لها محفظتين، من جلد فرو ثعلب، كان يحفظه على السطح، ومع الفجر كانت الرسائل في طوقين أيضاً من الجلد، أحدهما إلى عنيقي الطائرين، وأطلق سبيلهما. لعلهما يصلان إلى مطرح من البلاد... هكذا فقد، إذ إنه لا يعرف مصدر هذه الطيور أو أوطانها، وبالتأكيد، ليس كل الحمام زاجلاً، لكنها ضربة حظ، أو هي احتمال من احتمالات فاقيد الأمل.

فككت الطوق وفتحت المحفظة، أخرجت منها رسالة فالله، لم أبت بن ما كتب فيها، ولم أستطيع قراءتها على ضوء القمر. في صباح اليوم التالي قرأتها...

الله يحفظ على أهله في الكرخ...

126
أما نص الرسالة، فكان قصيدة لمظفر النّواب:

مرينا بكم حمد
واحنا بغطار الليل
وسعنا دق قهوه
وسيما رحهة هيل
يا رجل صبح بقهر
صيحة عشق يا رجل...
وحزن حزنين، لكل منهما مرارة.
حزن على فالح.
وحزن على طائر الحمام.
واحتفظت بالرسالة. لم أر فالح، ثم أذكر أي رأيته حين خرجت من ذلك الحراب الكوني.
تخيلته على سطوح السجن يلوّح لسرب رائفة في الدخان، بفقرته السوداء المحكمة إلى طرف قصة طويلة. تخيلته وحيداً يقي هناك بلوح للسماء...
لا أخذ.
لا أحد هناك... رأيت عاليًا هله طيور الحمام تروح وتجيء، وتتهاوي...

127
حين كنت أرى وجه فاحل، كنت أتذكر وجه بدر شاكر السباع،
في صورة تبنتها حملتها معي من قصر إلى بروت، لا أعرف أين
أصبحت. ربما تركتها مع بعض أشيائي ورسائلتي وقصصي أمانة مع
هدي في وادي أبو جميل، في مدينة بروت.
هذه رسالة من فاحل. قلت لفرنده، وأحسست أن لدي رغبة في
البكاء.

كانت رغبة عابرة في البكاء على أمور كثيرة...
هل تعرف فاحل يا فرند؟
هذه رسالة لأهلته في ببغداد.
كان فرند يتمتع في وجهي ويحاول التواصل معي. أراه، هكذا،
يصغي بشغف ورغبة في التواصل.
ماذا تقدّر يا فرند. لو نجوت وذلك الضبع السجان، أو سبده،
والثقينا في هذا الخلاء، هل كان فعل ما فعلت؟
هل كان شعر بالوحشة أو بالندم، أو بالحاجة إلى أنس؟
هل يموت الجلاد في الإنسان يا فرند، مثلما مات فيك الذئب
المفترس؟ أو الوحش الذي نموه فيك? ودربوه لتصبح شرسةً معادية؟

129
لا أدرى...
ما الذي خطر بالباصل تأثينقي بطار ميت، تريد أن تقول لي إنك
صياد أيضاً؟ هل أردت ذلك، عندما شعرت أنك أهينك، لأنك تشاركي
خيري وماني؟ أنا، لم أكن أقصد ذلك.
أنت أردت أن تهرن لي عن مواهبك الأخرى في مصارعة الجموع
بالأتيان بالطرائد كي تخفف خوفي من المجهول?
لا أعرف. هذه ظنوني، أو تموينات شخصية؟
ترى، هل كان فعل ذلك الكائن البائس الذي أسأبه سجاني، ما
فعلت أنت؟ أت كان استولى على كيمي وخيري وماني، وتركني
لمصيري في هذه الصحرا؟?
لا أريد أن أجزم، ولكن في نهاية المطاف أظهرت سيفعل. فالقوي
يا فرد، لكني يبقى قوي، عليه تخفيف أحماله وأعبائه، سأكون عنياً
عليه معاهتي وبطء سبري، وباتلاكي لبعض الطماع الذي لا يكشف في
الأساس لنصف رجل!!
أربت يا فرد كيف تسخلي عندي نوبات غير نوبات الجنون.
الفلسفة والحكمة والتحليل... يا حفري يا فرد. وضحكت، واعتاد
فرد، عندما أضحك ساخراً، أن ينبيع نباحاً مجانياً...
تعال لننفق هذا الطائر.
حفرت في الرمل، دفنت طائر فالح، بحثت عن حجر، عن شيء,
أصنع منه شاهداً لأحرق عليه: هذا الطائر من الحمام، هو طائر السجين.
فالح في السجن الصحراوي... إن مر به أحد، يبلغ سلامه إلى أهله في الكرخ.

ولكن من أين أجيه بحجر لأصنع منه شاهداً لقبر الحمام؟

كتبت بإصبعي على الرمل:

هنا دُفِن طائر فالح السجن في السجن الصحراوي
كان يحمله رسالة إلى أهله في الكرخ، (...)
علم أن الهروب سيتكفل به، ومحمو ما كتبت.

أين أهذي يا فردن. أليس كذلك؟

ماذا تريدني أن أفعل؟

 تريدني أن أنشد قصائد المتنبي... لو مر المتنبي من هنا لكا خسنا
أكبر شاعر في تاريخ العرب، أريدني أن أنتظري عكاذي وأنشد:

المخيل والليل والبيداء تعزفني
والسيف والرمح والفرطاط والقلم
ماذا تريد من هذا الحطام البشري أن يفعل سوى الجنون والضحك
والتهكم؟

لكم أنت مجنون مثلياً يا فردن، مجنون وحقيق في الوقت نفسه،

لعة الله عليك...

وارتميت من شدة الضحك على قفادي.

جفن فردن، ابتعد قليلاً، ثم اقترب مني وصار يراقي بحيرة
وأندهاش.
للمرة الأولى أسمع ضحككاني بهذا الوضوح، وصرت غير قادر على التحكم في نفسي، حتى كدت أن يغمي علي، كما حصل لي مرة مع ذلك الوحد الذي صار ينبح في وجهي، عندما علم أنه أكب الشعر... تنهشت، أغمضت عيني وواسنت عملية التنفس. بقيت ممداً على ظهري لدقائق. شعرت بفم ند نقرب من وجهي، مرّغ وجهي في لحيتي.

فتحت عيني على السماء، وقالت يا الله، لكم هذا ثقيل عليّ... وكثير ولفت من أفاصي الكون شهب مرّ جبالاً طويلاً من الضوء لف الصحراء من أولها حتى آخرها...

ثم تنحّد الكون، وغمز في السماء نجم.

وحنا القمر على وحشتي.

لتمسق، قلت لفرندة.

نهضت، أغواري نجم في الغيب، أنيت بكيسى، وعكاري، شحت روحي بأمل غامض وميشينا...

راح ياعودني خيط الحنين إلى مطارح تلوح وتغيب في بالي، خلف ستارة النسيان.

١٣٢

Twitter: @ketab_n
... وأرى نفسي يوم قتل أخي مهدي، أسير مع أهلي، في مثل هذا الخلاص، وفي مثل هذا الليل، وأذكر أنا في ذلك اليوم، لم تدع إلى بيتنا، أو أنا عدنا وعلى عجل حملت أمي وحملت أبي ما خفّ حمله، تماماً مثل كيسي هذا، ومشيينا ليلًاً كاملاً، وعندما كنت أسأل أبي إلى أين نسير يا باباً، كان يقول لي على باب الله.

وأذكر أنا في فجر اليوم التالي، صعدنا في شاحة عسكرية، ليصلي والدي لباساً عسكرياً... كذلك أمي تنكرت بباب مماثلة، وطلب مني بإصرار أن لا أنادهما بأمي وأبي على الإطلاق، وهم في أذهاني عندما صعدنا إلى الشاحة أن لا أنسى ذلك. وإذا سألت أحد عن أهلي وجهته ومصدره، ينكر سائق الشاحة بالإجابة على أنهم وجدوني تأتينهما في الطريق، وحملوني معهم لينقضوا عن أسرتي عند أقرب قرية أو عشيرة نمر بها، أو لدى بعض الرعيان لاحتمال أن يكونا ابني لأحدهم، ونها مني قطعي... يعني كان علني أن أتظهر بالخرس، وبعدم قدرتي على النطق والسمع.

كان تحذير والدي شديداً، فإذا افتضح أمرنا فستلاقى مصير أخي مهدي...

١٣٣
التزمت السماح. هكذا أذكر، كنتي دخلت في حالة من القيان، نسيان اسمي ونفسي وبلادي، وقد حدث أن توقفت الشاحنة مراراً عند حواجز عسكرية، وكان السائق يعرّف عنى: «غريب وأخرس... أو مسكون ناه عن قطعه... أبك وأطرش لا يسمع...» وواصل الشاحنة سيرها وأواصل صمتى.

عند أحد الحواجز، وجه العسكري سؤاله مباشرة إلى، وسألني بحزن عن اسمي، فلا أدرى إذا أني نفلت، وقلت له يوسف، وانا لست يوسف، لم أقل له اسمي الحقيقي... غريب. لم أخطط لجوبي، ولم أتردد ثانية واحدة حين أدخل رأسى من نافذة الشاحنة، وسألني... لم أخد، لم أتردد.

ـ ما اسمك؟

ـ يوسف.

تم عمل في وجهي، هي نظرات شكوك، هزّ برأسى، مرداً يوسف، ومكتفياً بذلك، لذت بالصمت، قالت أن بسالي، كما كنت نسأل عادة عن أهلي، عن والدي، عن عشيرتي... لكنه اكتفى أن أكون يوسف.

أذكر أنه هزّ برأسه واستملى، عندما اطالت الشاحة، اختلط هدير المحرك، بضحكات أهالي والسائق، وهم يردّدون اسمى الجديد يوسف. كان ذلك الحاجز الأخير قبل أن نتهدى نبنا الشاحة نحو وادي، لنبيت ليلة في ضيافة أقرباء لأبى. منذ ذلك اليوم بدأت أسمائي

134

Twitter: @ketab_n
المستعارة. كانت هذه الصورة تلوح ثم تغيب، تظهر وتختفي، باهتة.
حينها، وحين آخر، لكأنني كنت أراها أمامي بكل تفاصيلها.
أذكر أنها قطعنا مسافات، ومرنا بقرب بيوتنا من الطين، وخيل رعاة
في السهول، وركنا البغال في اليوم التالي، فراحتنا تقطعنا ونتحدر
أودية وتصدع جبالنا، وتطفق جوهرها على حصى تلك الدروب،
وبرفقتنا دواماً أحد، يسلمينا لاحد في قرية، أو عند منحدر.
وقطعنا غابات، ونبتنا في كهوف. وكان حذر أهلي يخف كلما
طوينا جبلنا، لكان الجبال درع واقية تحمي ظهر أبي من الطعن أو
الغدر. كنت أتأرجح خلفه على البغال كصيرة ثياب، وأشبت بوضعيه
عندما تدفع البغال في الدروب صعوداً في وعر صخري، أو تعتر عند
انحدارها نحو واد ككيف شجره وفواحة... هذه غابات صنوبر، وهذا
شجر اللزاب، وهذا سرو وهذا عفص أو سنديان، كان يعلمني أسماء
الشجر في تلك الهجرة الغامضة، أوضح ما فيها شجرها، وحسرات
أم، حسرات محدودة تتصاعد نحو السماء...
كنت أسمع لهجات لا أعرفها، عندما كنت نبيت عند بعض الرعيان،
أو في بيوت لا تشبه بيوتنا في وادي الدمو، ونمر في غابات تبدو لا
نهبها لها، يعرف ساكنها فقط، من نمذئ في التخفي، أو في التهرب،
ولكن، دائماً كانت تلوح بعدها قمم جبال وسقوف ماهولة ببيوت
منتزعة.
هذي تلة سليمان.
أشار والدي بسياسته نحو قريبة قابعة على رأس تل، ومنه انحدارات نحو أودية...

هذا وطننا الثاني... هناثنكمان ما يقي من العمر... لم يكمل والدي هناثن من عمره إلا القليل، كذلك أنا، غادرته في العشرينات من عمري.

لم أفهم تماماً مقصد أبي آنذاك، فهمت أنا سنقيم هناك.
لاحت تلة سليمان دفعة واحدة في بالي. لكأن ستارة ازاحت عن مشهد، أو لكأن بدأ كونية سلطت عليها ضوءًا هائلاً، كشفها كاملة في عتامة ذكرتي.

يوم أشرفت عليها مع أبي، كان ذلك مع بدايات الصبح، وقد بدأت الشمس بإضاءة قمم تتدفق في ارتفاعها، كان الله يعرف الضوء عزفاً على تلك السلسلة من قمم الجبال، التي أذكرها سبع، والثامنة هي تلة سليمان، الأقل ارتفاعًا من أخواتها. وقف والدي على رأس الجبل المقابله جبل البياض، يفصل بينهما سهل... بدأت الشمس تسلط بفءًا من الضوء بدءًا من القمة الأعلى وتدريجًا نحو القم الأخرى، لكأن لها صاحبًا يتفقدها واحدة تلو الأخرى يسلطة كشفًا من الضوء عليها، قبل أن يغله كاملاً لبنا مهراجها الإلهي، حيث تتصاعد من قاع الأودية أبهرة، وتنهب من شجرها طيور، ومن صفوفها الكائنات النهارية.

هذا وطنا الثاني، ونحيا في السهل، لنصعد بعد قمة سليمان...

وكان هناك الذي كان.

كانت هذه الصورة تتفت نفسي بين الشجن والحنين في قلبي، والتفت

137

Twitter: @ketab_n
وراني... ليس وراي، سوى الصحراء في أبدىها المطلقة، فأصاب بالفراغ، ويفتق حمي.
تثبت، قلت لفرندة، أو قلت لنفسي، أحياناً تكون الذكريات أكثر نقلاً من جبل، وترخي على الكفين حملها، لا على القلب فقط.
ثلة سليمان، لم تحضن فقط ذكرياتي، يحضن ترابها تراب أهلي، ومريم...
آخر وجه ودعته هناك قبل سنين، يوم بدأت مثاتلي الثاني، في طريق البياض، على رأس جبل البياض، المشرف على ثلة سليمان، هو وجه أمي... كانت تجرّ غصناً من السنديان، لشتاء آخر من عمرها...
سُموها أرملة الغريب.
تركت مريم على السفح قليلاً... أمها عازية كانت تستحم.
هناك بدأ تدحرجي نحو هاوية الأيام...
استعرت من غناة أمي ذلك الموال، وغنت:
دورات الرحي عن قلبي ورفاق طال
مين اللي سماك غريب؟
وهلِّ نسيم... وطير صوتي...
فطير قلبي الحنين.
شمت رائحة بيت أهلي العتيق في ثلة سليمان، وطننا الثاني كما سماه أبي، بناه من حجر غشيم، على ثلة في القرية اسمها ثلة بنت
السلطان، تبدو كجواب لثلة سليمان أو بنت من بناته، جردة، سوداء بركانية، تشرف على الجهات العارية، ومنها انحدار شديد نحو وادي الجن. كنت أتدحرج عليه وصبية أشياء، جاؤوا من هفوات ليل آبانهم، ونسحم في "الجبيط". بركة رؤتها سقوط الماء وانحداره من فجوات الصخور العالية، كان شلالاً هائلاً الهدير في آذار، وحيلياً شحيحاً في الصيف، لكن سقوطها على أجسادنا العارية كالسياط، يلمس لمساً. لكنه بالتأكيد أكثر رحمة وإنسانية بما لا يقاس من سياسة أولئك الأوغاد.

هُب النسيم أكثر، شملت رائحة صنوبرية، هي محض خيال. لكن شممتها، انتشرت لعطر هُب في بالي، فخفت جسدي، وارتعشت من لسعة النسيم، ذكرتني بلسعة ماء الشلال.

شعرت بريق في عيني، لتكاني رأيت ما لم أره في الواقع...

رآيت مريم، وقلت:

سلام لم يعلمني فل عروة الحرف لأزرع قميص الحرير لأول آثى تعرت أمامي في الحصبة، كنت نادي العواشي، على ناس الأضعاف.

هي مريم، هكذا سمعها أبوها، قاتل والدي.

هُب النسيم مشبعاً بالجوري...

قلت لها أزيتي نهديك يا مريم، وأعطيك رماناً من حقل أبي.

امحررت مريم وقالت لي عيب، فرجوها: إنني أشتهي أن أرى نهديك يا مريم، فقالت لي أنت أزرع بلكي حدا شافنا، وخلسة فكت زرا في أعلى القميص.

139

Twitter: @ketab_n
شعرت بديب نمل يسعى على سلسلة ظهري، وارتعش قليلاً وراح يخفق.

انحت كالفوس فانهم شعرتها شلاً، وغمز وجهها، أزحت خصلة منه بيد، فرقت عينيها المذبوحة، ولا أدري كيف عشت بدي، فعضتني عضت أطراف أصابعي، وتمدت على القش كفطة مغناج أعطيلك كل حقل الرمان يا مريم، دعيني أشم عطر النهدين، حيث يفوح الجوري.

من عُلمك وضع الورد بين النهدين، أيتها الشقية.

أمي»: قالت وتهدت، فتهد فرمانها.

واحتقت...

كان الضحى عاليًا، وسهل القمح مديداً، والكائنات الضحوية في انشغالها، قوافل النمل تجر إلى مخابها حبات الحلطة، وعصافير أيلول تعالج ثمار التين المعسل، وأسراب الطيور المهاجرة تعب الفضاء نحو الشرق، والجدارا العنيفة تندم أعنائها نحو أطراف غصن شجر السنديان في السفح...

أريني الوردي يا مريم.

تململت على القش، وقال لي: منين ينجب هالكلام... عيب.

الختت، رائحة الشهوات برازية الحصيد والأعشاب البابسة، احترفت أكثر حين بان الوردي فواحاً ندياً.

مررت عليه أصابع هذياني، فعضت وجهي خفيفاً، ودحرحنا على

140
الحصيد حتى أول المساء، نهنا غناء الرعاه، وأصوات الفلول.

هَب النسيم...

هَب عطر مريم، لكان الكثيب المتناثب تحت ضوء القمر ذكرني

بجسد مريم آناتي الأولى:

صمتت، في سنواتي لاحقاً، من ارتعاشتها تفحمتي من

النفاد. وكنت كلما مررت بحقل فرح أرمي آش رائحة آناتي، وهي

مميزة كالنمنان على ضحي السهل. أذكِر أعطيتها رماناً وأطمعني كثيراً

من رمانها، حتى تنميت لو بقيت راعياً أبدياً نعم المواسم دوني، أدنو

حذراً من شفتيها ثم خدراً ملئاعاً...

يا شفانى.

سُقِها أبوها مريم، ودشَتْ أمها السم في زادها يوم افتضح سر

حملها.

مات على زندى في موسم آخر.

أحرقت دار أهلها وهربت.

كنت راكضاً في طريق الباص، تاركاً خلفي مريم قتلة في السهل,

فرأت أمي تجرّ غصناً من شجر ياسين وتبني الغريب، لأنني...

قلت لها: أحرقت بيت أهل مريم... كان الدخان يتصاعد من فتحة

مؤقتهم، ومن النوافذ وكوى الجدران، والشموسة بولون وياتنين بجوار

الماء، لإخماد الحريق. ولكن النار أجيدة كما حقدي، تلتهم خشب

السقف، وصناديق الغلال، والتين، لا يعدها إلا طفوان نوح.
صرخت أمي: يا ويلي يا خراب البيت. قلت لها اتبعني. لكنها للاسف سقطت أرضاً من وهن الرعب، وراحت تشرب النار على وجهها وتبتكي، مثلما فعلت يوم مقتتل أخي مهدي...
مثلما فعلت يوم مقتتل والدي في بستان الرمان.
 تركتها. كان ينبغي أن أتركها وهي تصرخ وتقول: مين بقي لي يا ربي...
الفنت خلفي، رأيتها في ذروة الفجيعة، لكنها لم تنس أن تحملني دعاء. طلبت من صاحب المقام الأعلى أن يراف بي. وتبعت نواح الفجيعة.
لأ وجهها منذ ذلك الزمان.
لم يراف بي أحد.
لا حقتي اللغة مثل أخي ومثل أمي، لكنني لم أقتل بعد نهائياً، قتلاً بي عمري وشيئاً عميقاً في روحي في سنوات السجن.
في ذلك اليوم، كانت أم مريم تستحم حين فتحت بابها وأصدر صريراً موجعاً. شاهدتني، ضمت نهديها براحيتها، واعتصرت فخذيها. بياضها زائف في غلاف بخار الماء، امتلأت النضر أثار بي غريرة غامضة، ذهول عينيها الخضراء، انفراح شفتيها. ارتباطات حسديها النابض بالشهوة، محاولتها الفاشلة في النطق، أو بالصراخ ربما، أشياء زادت من إثارتي.

لا أحد في البيت سواها...

سأتها:

أنت سممت لمريم؟ ارتعش صوتي، أريدها وأريد قنلها... هكذا طننت.

لكأنها أصبت بالخرس، ولوحت برأسها فتاتها الماء في وجهي.

اقتربت منها أكثر وكررت: أنت قنت لمريم? لكي تكن النسيت أنها عارية، نهضت عن كرسي الاغتسال، في العتبة، حيث تجمعت حين أصدر الباب صريره، بان عبريها كاملاً، شهاً منعاً وراحت نهدي... تقول كلاماً لا معنى له، تبكي وتلويح برأسها فيتائر الماء المشبع برائحة الغار والياسين على وجهي.

143
هي مرهم. لكنها مرهم لكنها في وداع الثلاثينات... فتحت ذراعيها... وضعتي بعنف، فسقطت على حصير القش، أطلقت بغمي على عنقي، وبدأت تلهث كلها جائعة.
خفت. حاولت الإفلات والهرب، فخذرتني لسانها حين بدأت تذاعب شهوتي، عنقي وشفتي، عرتي من ثوب، بدأت تمرر لسانها على حلمتي صدرى وعلى بطني ثم أطلقت على عضوي، وعضته صرخت... ظننت أنها تستقطع بأسانها، لكنها محت ظوننا باجتياحاتها... حاولت الإفلات مراراً، لكنها كانت تلجأ إلى تخديري لسانها حين تدخل في فمي، لكان في ريقها مخدرًا... إلى أن استسلمت لها. لبوة هائجة... وجائحة وأكلتي... تركتني ممدا مدهولاً... حملت من صندوق ثوبها فستان عرسها، ارتدته، جاءت بمشط من العظم العاجي اللون، طلبت مني أن أسرح شعرها. يا إلهي: مجنونة؟! كانت تلفت وراها، تمسكتي من رأس، وتدخل لسانها وتبخ ريقها في فمي فازورغ، أصبح خدرًا.
كل ما فيها مرهم، شعرها الأسود الهائل الكثافة، نهداها، انزلاق الخصر نحو الوركين وقامتها وانفتاحها بينها المكور.
صرت أسرح شعرها، نمشك بيدي الثانية، وتقودها كالعمرياء إلى نفسي.
لا أعرف حتى الآن ما الذي جعلني في ذلك الجنون... جاءت

144

Twitter: @ketab_n
بمسند محشو بالخرنق والصوف، جلست عليه، رفعت فستانها بكثير من الإثارة والإغراء عن ساقيها، بدأ يظهر شيئًا فشيئًا بباض فخشىها، وبدأ قلبي يرتجف، إلى أن ظهر ذلك الشيء الأرجوانى الرطب، كان ينفرج ويقفض...

كنت أمامها جالبة مذهولاً، مدّت يديها، أمسكت بي وشدتني فاعتيتها. ودخلت، كما يدخل السارق بحذر وعلى مهل، وصمت، سمعت صوت الولوج، غرست أصابعها في سلسلة ظهري، بّينتي فوقها، صارت تعلو وتخفض، وتنين أنياً موجعاً شهوانياً، هّبت عاصفة في الخارج من عواصف أيلول التي تعزى الشحر... أصدر الباب صريراً خفياً، وعرّ خوفي.

ارتعبت، إن الباب قالت، لا تحف، لم يبق أحد حيًا هنا في هذا الحي.

حين بدأت بالصعود إلى النشوة، ازداد إصرارها على التشبيث بي، ثم تحوّل أجلها إلى بكاء مرير فجاعي، حين وصل الدروة، صرخت بوجع آخ.. آخ.. يا... ثم عوّبت كأنما الذئاب الجريحة، ارتعبت قريها. وقفت وقعت نحو الباب تلقى، ثم انحشت لكاتنها تزيد النقاط حاجية من أرض العتبة، رفع هبوط العاصفة فستانها فارتيت على ظهرها، أمسكت بعارضتي الباب، بان ظهرها أملس منزلقاً، نادتني أن أقرب لأساعدها، اقتربت. قالت لي: ساعدني على الوقوف، مددت يدي نحو صدرها، أمسكت بي وأدخلتني ثانية... وصارت تلوي.

145

Twitter: @ketab_n
أمامي، وأمامها من الباب يمتد السهل حتى سفوح جبال البياض،
وسلسلة أخرى نحو الشمال سود بركانية تتهي إلى انحدارات نحو
الغوموض الكوني. هناك تماماً في مواسم الريح، تبدأ مراسم جنائز
الأبدية، وتصدح الأوردة والكهوف بغياتها.
في صعودها إلى النزوة وصعودي، صرخت فرداً عواؤها الجريح.
في وادي الجبن وجاوتها كائنات الكهوف... 
ربما كل هذا كان سبب شعوري بإطلاق عواقي في حالات الضيق
والتخلي.
ارتمت على مصطبة البيت تنتحب، مرددة اسم مريم.
قلت لها سأحرق البيت... أجايبت:
أحرقه وأحرقني... وصعد مزاجها المجنون، وراحت تصرخ،
حاولت إسكاتها، أطبقت براحتي على فمها، فعضنتي. جرتي ثانية إلى
داخل البيت، أنت برميل الكاز، وأراقبه على الحصير ومخازن النبي،
أشعثت عود ثقاب ورمته على أول الحصير.
لم أقدر ما كانت تفعله، لم أصدق! ولكن ما إن بدأت ألستة النار
تمتد وتتلوى حتى اجتاحي الذعر، وتبهثت إلى الكارثة. حاولت أن
أجرِها إلى الخارج، تسببت بعمود البيت، أنتي قدرة نادرة، فحملتها
وركست حتى يستن رمان أبي. لا أعرف، ماذا علي أن أفعل... ذهول
أحاتني إلى فراج تام...
أحرقت ببيتي. قالت...

146
آنم آحرق یتک.
ولکنی شعرت شما را روبید النار آتشام آخشنها و تمم آنستنا من
الکوا، شعرت بنشوا ماه، او هو شعور بیلیته لأبی، او لریم، ولکنی
لم آفعل. هدیه که فعلت ذلک
لمن کشتار؟ هل شئار بالنتیابه علی؟
ترکتکه تنتحب فی بستان الرمان، و مشیت....
صحتو...
صحتو من عاصفة هذا الذي عشته في ثلة سليمان، عاصفة هبّت
dفعة واحدة وحملتني إلى تلك الأيام.
و حين صحتو، لم أدر كم مر علي من الوقت وأنا غارق في تلك
الذكرى الباهتة. وجدتني خدراً، بنز من جبيني عرق بارد كعرق القلق.
كانت الشمس ترسل من مخيبها في الشفق، رسائل وهج، تتبث بعظم
نهار آخر، ليس فيه من رحمة أو إشفاق.
نظرت في ذلك الشفق الأخير الجمري، بدأ قوس الشمس ينبجس
من الرمل كثلة جمر، يكشف عرا المكان بكل عدميته، حتى كدت
أسمع هسياً لزوقها الخجافي.
ظننت أنني كنت أحلم بثلة سليمان، تلك القرية التي بدأت منها
تدحرجي الثاني، بعد مدينة الحصر، وادي الدمو، عندما وجدت
نفسي مسؤولاً على ظهري، يبدو أن نابي في الذكريات، أنا خذلي،
وأدخلي في النعاس.
كان فرد مسؤولاً قربي، ابتعد بصحوتي، بدأت أستعيد تشتت
وغمي، وحضوري على صبح نهار جديد. هو حضور ناقص ومليئ.

149
ازداد ضمراً عندما وقفت، وعاشت جهات الله محاولة تقدير المسافة التي تفصلي عن الهدف الذي جاءني وحده، هو ثلة سليمان.

هكذا أصبح لي هدف أسعى إليه ومطرح قصد.

وتميّنت لو بقيت أهدافي مبهمة وغامضة وغير واضحة، أو أن الواضح فيها يبقى في حدود العثور على شجرة طلبلة، أو واحة نخيل، كأهلي القدماء... أو على صخرة كنتلك التي وجدت نسبي ممداً بالقرب منها.

صخرة حانية فوقي كجناح، لكان يداً جاءت بها من سلسلة جبال الغربان، وزرعتها أثناء نومي، بالقرب منها مجموعة أخرى من الصخور، لها أشكال تشبه الكائنات التي أصبحت بالتحول، صخرة غزال، وأخرى طائر عملاق. وصخرة تشبه رجلًا مارداً مبتور اليد يحمل في يده الباقية كرة. وصخرة تشبه قبة مسجد عتيق، وأخرى أني حانية على عريها، لكأنها أصنام آلهة قديمة، لبشر أصابهم الفناء، ورحلوا وتركوا خلفهم آلهتهم تتحرر واستحالة حملها.

هل يعودون إليها؟

أصبحت بالقشعريرة، حين شاهدت واحدة منها تشبه الإنسان تماماً في حالة صراخه القصوى، يداد محدودتان إلى الأمام كانه يدفع عنه مصيبة أو عدوا، وقدمه وندان مغروسان في الرمل، وقد لفّ جسده بجلد نمر...

يا إلهي...
صرت ألمس هذه الصخور لأن أتأكد من وجودها، من صلابتها، وهي صخور بلوان الرمل، صبالة ناعمة ملمسها، في بعض المواضع. صلبة، لا هشاشة فيها كما توقعت، حين حككت بظفرى جسدها لأثني حقيقتها... وبدا لي المكان صالحًا للسكن، لو توفر الماء.
في غرايته ألفناء، ونداء... ما هذا؟ من جاء بهذه العجائب وزرعها في هذا الفراغ؟ أذكر شيئاً من هذا المشهد، في كتاب، أو في رحلة ما... ربما مرنا بها يوم شتاتنا من مدينة الجسر، وادي الدموغ.
رغبتي في العثور على أثر للكائن بشري، عبر هذا العالم الصخري الأليف والموحش في آن معاً.
ألف، لأني رأيت بإمكانى أن أحمي نفسي في ظلاله، أن أستند ظهري على بنيان وทนائه... وموحش، لأنه وحيد. هو تجسيد للعزلة، تجسيد صخري لمعنى العزلة والوحدة...
لا شك، حتى هذه العائلة من الكائنات الصخرية، التي يبدت لي كحمولة زائدة للله الكون، ربما على عجل... وتابع لعبة الرمل... هذا ما كنت أسأله به، حين توصل إلى استخلاصات شعرية...
وأضحك من استخدامي الوصفية.
هي تهويات التيه...
على كل حال، لم يبقت الأمور في حدود العثور على أهداف من

151

Twitter: @ketab_n
هذا النوع، كان أسهل على من الوصول إلى هدف أعرفه. إلى مكان
يخصني، وكان شبه ممحوٌ في ذاكرتي، غير ملخّ وفإن عنٌ بالي أحياناً
وجه، كوجه مريم، أو وجه أمي، أو وجه هدى، أو موطن ألماني وألفت;
في هكاكِ في بداياتها، كان ذلك يبقى إشارات تذكرني بما كتبي،
ومضات تشبه حركة كشافات الضوء التي كانت في برج المراقبة، أو
كتلك الأحزمة من نور الشمس الذي اخترق فجوات السجن، لأرى
جشع رفاقي.
صارت تلك الأهداف التي كنت كبري، كالعثور على شجرة أو
صخرة، أو طائر يحمله كليبي، صغيرة، وفي خدمة الهدف الأساسي:
الوصول، الوصول إلى تلة سليمان، وليس لي هناك سوى مقبرة أهلي.
وقدت حين سعت، حين مشيت، لا أسعى للوصول إلى أي
مكان... كنت لا أعرف إلى أين أسير وأصرر...
بدت تلك الصخرة الجالبة هناك تشبهني، حين أصبحت بواحة من
نوبات الهذان... ورأيت ما رأيت قبل يوم.
ترى، هل هذه إشارات لما سأصبر عليه؟
ففجأة تحوّل ابتكار هذه الصخور من عمدية المصحّروة، إلى تهديد
صريح لوجيدي. هل سأصبر بالتحول إلى صخرة في هذا الخلاء؟
وظننا أن من بمر هنا، قد يدخل في هذه التجربة، ويتحول. وما هذه
الصخور إلا كائنات ضلت طريقها، وغيرت هذا المكان المملوء
فتحولت إلى جماد أبيدي.
هذه حكاية رؤتها لي جدتي... أن مكانًا في الصحراء، إذا عبرته النفس، تتحول إلى حجر، وقُصّت على حكاية الرجل الذي تعاينة ووجدوه بكامل صفاته، لكن ليس من لحم ودم، بل صخرة، وما استطاعوا حتى حمله، فتركوه للأثوار.

قلت:

هذه تزهات، أي صخر؟ كل نفس هنا تتحول إلى وليمة سريعة للهباء، للجوارج.

لم تفلح هذه التطمينات التي استدعيتها من وقعتي، في تخفيف ارجئي.

نظرت إلى كلبي، لاشاركه مراولة وجودي، فرأيته على غير وضع، واقفاً، منتحراً. لا حراك فيه. لا حياة فيه. كلبي بكامل حضوره، ولكن بدا كأنه في حالة انقضاض أصيبت لنتو بالتأيد، كصورة، أو كمنحوتة... صنم كلب.

صرخت فرند...

لم يتحرك.

فرند...

سمعت نفسي صوتي ترتدم في أذني...

ويت...

153
يا لهشاشتي... خراء... سممت نفسي، شتمت هزالي...
لم تدم طويلًا هلوساني، وجدتني ثانية ممدة، لكن هذه المرة على
شاكسة المصلوب. كنت مصلوبًا على عكاري، وجهي أو خدي على
الرمل... عكاري هو صليبي، في فمي حباي رمل، نفسُ يشتدني إلى
الغور، إلى سبات عميق، ورغبة تشتد جسدي إلى النهوض.
كان كليبي يشم وجهي ويدصر أصواتًا غريبة. صعد من أعمق
شعور، يشبه ذلك الذي انتابني يوم جاروًا في الصبح، على الفجر،
إلى بيت هدي في وادي أبو جميل في بروت، وطرقوواباب
بعفف.
öff he a Kelb، افتحي يا شموط... افتح يا حيوان...
حملوني كحرة، إلى صندوق سيارة، جروني على الدرج كذبيحة،
كصورة لباب بالية، تدحرجت، وضعوني في صندوق سيارة، وسارت
طويلًا... طويلًا...
كان شعوري آنذاك مزيجًا من الخوف والترقب، وكانت رغبتي أن
تفتح لي فتحة، ثقب، لأرئي الضوء، فقط لأرئي الضوء.
... ولكن، لم أر الضوء على الإطلاق، إلى أن مرّت سنوات، وفرغوا

155

Twitter: @ketab_n
روحي من أية رغبة .. ووجدتني في ذلك السجن اللعين وسط الصحراء ..
انتابني رغبة في أن أرى الضوء، رغم أني مكشوف للسماء ..
لكن إحساسي بالغمة كان طاغياً. خففت من سهولة استسلامي للنوم،
للمعمر .. زائع خوفي ما بين إدرابي لوجودي وعدمه، حاولت تأكيده،
بالتغلب على وهني، بالمكابرـة، وقت يلمع الموت لم يعد،
حين كان ذلك اللعين يلفظ ظهرك بالسلك قاومت ولم تعبد .. انبض
أبي الرجل، عيب أن يقتلك خوفك.
أي خوف، وممأ، أخاف؟
هذه نوبة من نوباتي، كنت أشعر بالراحة، عندما أبهرن لنفس ما
يمر بي، وتشتد عزيمتي.
واستك كلي: أين نحن يا فرند؟
ما هذه الصحراء؟
من جاء بهذه الآلهة؟
هل جاءت لتبارك غيامي وصحوني ووحدتي؟
انبعاثات وهم الشمس من الشفق، تذكّرني بسيخ النار الذي ترك
هذا الندب في جبني. مررت أصابعي على جبني، كان رطبًا، باردًا.
أعرف هذه الحالات، كانت تصيبني عندما أغرق في كتابة قصائي،
أو عندما كنت أحاول وصف اليوم الذي حملوا فيه أخي مهدى إلى
قوص الموت .. وتركتم أوراقي على طاولة عارية، في حجرة عارية،

156

Twitter: @ketab_n
في وادي أبو جميل في بيروت... ونكررت كسلحفاة في صندوق سيارة، أو حزمت كسرة. أعرف هذه الحالات، ولكن صرت أكثر هشاسة من احتمالها، ثقلة، كنتلك الذكريات.

ثقلة... يا الله... يا...

دوّى الصح، ليلة خطفي.

وأحسهم صراخي في دفع كرة النار من مخبئها.

فالتهب الشفق.
كنت لا أعرف إلى ابن أسير، وأصير... قبل صحتي،
قلت لنفسي، ولكلبي،
لنمش أيها الضابط.
هذه الصحراء قد تحمي جسدي من سخط الشمس، لكنها لا تكفل
بي، لا تشفع بي، ليست آلهتي... أنا إلهي نفسي في هذا العدم.
ابتعدي... أمشي كلي.
ورأنتني فكرة أن يكون لي تابع، أنا أممي لأبلغ رسولتي، أو
حكيمتي، أنا شفع روحي... أو أحرقها، أو تحرقتي... وهذا كلي...
كنت هكذا... ثناك دفعات دونكشوتية، لا مبرر لها، وأشعر باعتِداد
فطاع ومتحددُ، سرعان ما تناشى أمام الخصم، وخصوصي هذه الصحراء
التي لو اعتكر مراها لابتعتنى، وحوُلَّنتي إلى هباء.
الزمن أشد الأعداء فتكاً.
لنمش لعلنا نظر على ظل آخر، قبل أن يبدأ السخط الكوني، ويعمل
الله عصيرة الدنيا، وأنا لست بمختطٍ، ولا يمعرق أو قاتل أو سارق أو
ظلمٌ أو زان، حتى يقتضي مني، وأعانقي في سفيني الصحراويين، خلف
جدران الأسئم وأمامها، في هذا المدى اللامتناهي، ولا أعرف إذا

Twitter: @ketab_n
كان ذلك الحب الذي اشتعلت به مرتين، هو زمن
ولا أظن أن الله يعاقب على الحب، مثلما يعاقب الجلل على أفكار لا تروقه... أن يبر الأعضاء، أو يبترها، كان يبترع مسماراً صدأً من لوح خشبي، أو يقطع غصناً من شجرة بابسة.
و كنت أعجب من نفسي ومن الآخرين، كيف لحظام بسري أن يحيا مجدداً، ويعيش، أو يفرخ، كلما تفرخ غصن الشجر بعد اجتثاثها؟!
كنت أهره وأله بمشهد، أو ب💕كرة عندما تعاودني تلك الصور،
لكنها تغلبي، كأنها تغوص صهي وتستلم أمامي.
كان فردة دائمًا لسانه، يجعل بين الحين والآخر من هلوساتي، أو ربما يعجبني، يعجب من رجل يحدث نفسه!!
كلما رأيت لسانه، أنذكر قصة نعم السايب، الراعي الذي قطعوا له لسانه.
لقد ضُعّت مرة أخرى من شعر فرحان داوود خلف قطبه:
«مين أمتك ما تعود تلو كنت خوان». كان نعم السايب لا يعرف أن ترد هذا الشعر أو غناءه ممنوع، وأن كان به يقصد به هجاء القائد، وقد دفع خصيبيه ثمًا لذلك، وما يبقى من حياته قضاه في المؤيد.
كان يغني هذا الشعر كأي موال، ليؤسس وحشته ويسلي قطبه في الفلووات.
ولسوا حظه مرت به دوربة على غياب ذات يوم، وهو عائد.

160

Twitter: @ketab_n
إلى المبيت قرب مدينة الجسر، وادي الدموع، يعبر بفطيحه طريق الأسلفة، توقف بالقرب منه جيب عسكري محدثاً جلبة وذرع أشتقا القطيع، هاش كلبه، فأطلقوا عليه الرصاص، صرح به الرقيب من نافذة الجيب: اركع، اركع.
ركع، رمي عصاه ورفع يديه عاليًا...
- تشتم القائد يا حقي؟
لم يعر نعيم السايب على أي إجابة أو أي وسيلة للدفاع. أصيب بحالة ذهول، وصمت.
- أجب يا حيوان...
لم يجب شيئاً، حاول النطق لكن الكلام غار عميقاً في جوفه، عبر بديه المرفوعتين متعجباً من هذه النهمة التي يعرف عقابها في حقيقة نفسه، نهمة قاتلة! حاول أن يقصر بإله إنه لم يفعل... لكن الكلام نسحق من جوفه.
- شيلوه، صرح الرقيب، ساقط لسانك وأريمي للكلاب.
حملوه إلى الجيب، رموه كتلة من هشاشة بشرية في الخلف، تكتم على نفسه يرد اللعابات، و... انطلق الجيب تاركاً خلفه خيطاً من الدخان والآخر من التحبيب.
بعد أيام، خرج نعيم من قسم التحقيق، مقطوع اللسان، رموه في الساحة، يغمر丈夫... ومنعوا أحداً أن يتقدم نحوه، ظل ينزف حتى...

161

Twitter: @ketab_n
قالوا: قطع لسان السايب براد به عبرة لكل من تراوده نفسه ولو
نشره، استعادته بيت من شعر فرحان داود.
لكنهم أرادوا بذلك أن يمحوا من الذكرة هذه القصيدة التي شاعت
أكثر بعد قصة السايب، نهاس الناس عن سبيل قطع لسانه، رددوا سراً
أنه كان يغني:
من أملك ما تخونو ولو كنت خوان.
شاعت الحكاية ووصلت حتى ما بعد حدود البلاد، وصارت
تنسب للسايب بعد سنتين، وأخذت أشكالاً أخرى، حسب اللهجات
التي تناقلتها...
ليت السايب كان آخر، قبل ذلك، لكان وفر على حملي حملً،
وخفف من أوجاعي. قلت ذلك بصوت عال.
أو أن هواء الحصرة دفعها من أعمالي...
نبع فرند.
بدأت شمس الضحى تسكب حمما على رأسى، مددت يدي إلى
كيسى وأخرجت منه "تربون" السدر. رفعته فوق رأسى المائل وتلك
خصلة ترسخت في المهاترات، زادها غرحي إصراراً، من أجل التوازن.
شفت يا فرند، جئت بهذا الغصن الصغير من السدر ذكري، وإذا به
صار حاجزاً، وما خططت ل -$ظيفة له، عندما كسرته من غصن أم، كان
فعلي مجاناً، أو أحببت أن أحمله للود فقط.
هناك حكمة تقول: الحاجة أم الاختراع.. ولكنه اختراع خرافي.
لم أكتشف شيئاً، ولم أخترع شيئاً. اكتشفت وحدتي، لا أحد يعرف ما هي الوحدة بمعاناه العملي، سوى من عبر هذا المكان. وذلك الشعور الذي كان ينتابني في أيام بيروت، عن إحساسي بالوحدة أو الوحشة، هو ترف، أو نوع من زرق شعاعي، لكتابة قصائد الوحشة، أو استجابة عاطفة أثانية. شيء في غاية السخيف، أي وحشة تلك. أمام هذا التخلص؟

 كنت أتخيل وحشتي. الآن أعيها...
 كنت أتخيل أني في التخلص المطلق، وأن غرفتي في وادي أبو جميل في بيروت أضيق من زمننا. تهييتي أبعد من صحراء، ثم بعد قليل أندفع إلى مقهئ في الحمراء وأرشف القهوه مع شلة من الأصدقاء... أنتظر هدى على باب البداية، أو على سفرة الدرج... كم كان رحباً وأليفاً وجمعاً وممطاً ذلك العالم.

وما اكتشفت:

اكتشفت نعمة النسيان، وتمتيت لَوْ بقيت قابلاً في ذلك النسيان. فتلك الصور التي تضعف بذاكرتي كأعتاب في مراح الصحراء، تروح وتجيء، تثقبُ ثم تعود، تُعْدِّبِي... أكثر من نسيانها... النسيان لا يعذب، الذي يعذب ما تذكره، وليس الذي نساه. أحياناً تلمعُ بالذكريات، نحولها سلوتنا في حالات السأم، ونعلم أنها تعدينا.

إن أتذكر كيف ذلك اللعين ينسى بروحي ويجسدي، يفسر...
سيجارته في لحمي، وأ שמ رائحة اختراق لحمي، أو يمرر سي م النار على جيمي، وأحاول أن أمحو الصورة بصورة أخرى عن طفولي مطمئناً خلف والدي كمرة ثياب، والبغال تصعد بنا جبالاً أو تحدرو أودية، أو أتذكر مريم... يا إلهي، هذا أكثر ألمًا من لسعة السيده، ربما لافظاده إلى الأبد. وعدم تكراره يرخي على النفس غيماً من الشجن.

إن أمطرت، تعطر دمعاً حاراً.
أغرب في عالم أبدل عليه الزمان ستارة، تحركها نسائم الرغبات،
ثم أعود وأنشط قدراتي التحليلية، وبواعث التهكمات، فندم ماشيتي،
بالحقاً لناسه... يتوقف أحياناً، يرفع كمرصد أذنيه، ثم يرخيهما، تعبيراً
عن خيبة...
لا شيء.
لا شيء هنا يا فرند.
لو كان الشجر يمشي لمشينا ثلاثة: أنا وأنت وشجرة السدر.
ما كنت أظن، أو أتوقع، أي ساحمل هذا (البربون) وأمشي به
ليظل رأسي.
بدا لي ذلك المشهد عبثاً، رجل يحمل غصن شجرة ويفحم رجله.
كلانا غصن مقطوع من شجرة، كلانا ناقص، وأبدو لنفسى أكثر
غرابة، عندما تختلط عليَّ أشيئتي، وتبجس من النسيان صور الماضي،
حتى كنت أظن أن كل ما يحدث أو ما أتذكره هو مجرد خلص وليس
حقيقة، وأني لست أنا، بل أنا شخص آخر يحجكي لأحفاده حكاية رجل
هو أنا.
راودني هذا الشكل وأنا ساهم في السراب.
165
توقفت، تفقدت نفسي، لمست وجهي، وتحتمي وقديمي، وجري...
جري حذر، يلزمني عندما أضغط عليه بسبيابي.
في المدى المنظور أمامي، في مجال رؤتي، لاح شيء ما. لا لسراياً، فالسرايا صار ثالثنا السباق دائماً، وعقيلي يتدفق أمر تضيفه وتمشيه.
شيء، بدأ، ناتجاً من الجوف ومغترقاً للفضاء، مالتنا مساحة من الفراج، يشبه جناع طائرة... نظرت إلى فردنا متفحصاً حاتسه اللافطة للكتاتيب، بدأ محايداً، سائله:
هل تشتهر راحعة ما يا فردنا؟
نظر إلّا، لكن ليس بغاية الجواب، بل لأنه تعود سماع اسمه.
الشيء الذي يلوح بعيداً، لا شك أنه عملاق، وإلا فإنه يستحيل أن أراه في ذلك الأفق... ولن كنت مستناحاً لاستيعبت تقدير المسافة، ولكن هذه من المحارك التي أجهلها، وإن كنت مهووباً بعض الشيء بالقياسات، وتقدير المسافات، وفق المنظور الرعوي.
كان ذلك الشيء يلوح خلف السرايا مثل طائر أسطوري، توقف...
وواصلت النظر والتأمل، قدّرت أن سافرنا خلال نصف يوم.
توقف فردنا، نظر نحوه كعادته دائماً لسانه، رأيت في عينيه حزناً، هو موجود في الأساس، لكنني لم أتبين بهذا الوضوح.
أخذت من كيء بعض كسرات الهمز، نقاسدناها، شربت ماء، وسكتت له في عليه، وباقتصاد شديد، كنت أعلم أن زادى ومائي في
حالة تناقص متزايد، ليس من عملية الاستهلاك وحسب، بل من حملي الذي خفّ.

التفت وراتني، كعادتي، رأيت جمهرة الصخور، مثل صحبة لي تشكيوني. بعدما فشلت في شيء عن متابعة سيري، زائفة، في أبهرة السراب، تمايل، كأنها في حالة تشاور حول مصيرها. واعترفتي الربة مجدداً، ترى هل هي كاتنات تحولت إلى جماد بفعل غضب؟ أم لقلعة التدبير كما تقول الحكاية. في كل الأحوال لم يكن وجودها عادياً أو مألوفاً، هو وجود محترض على التخيل، زادته غرابية جمهرة أخرى من الصخور أقل تماشاًكاً واكتظاظاً. قامات متنايرة متبدعة، كأنها شراذم فلول ما، حاولت الهرب، أو تخلقت عن اللحاق بالجمهرة الأعم. هي أيضاً بدت لي كآلة فقتة أدورها بعد شتات المريدين.

وأغراني شانتي منها في حالة عناصر كأنهم حبيبان التفيا بعد فراق وتيه وتعانقا حتى الالتحام الأبدلي لفرط الشوق. عن باني أن أستريح في ظلهما، وأرسل رأسي إليهما، لعلهما يشبان لي بسر أو بخاطرة، أو بفكر، أو أن أغرق في مقامهما وأحلم حلمًا أنابع في يقضتي...

ولكن حين اقترب أكثر منهما ضاغ الشكل وقبيت الفكرة...

تلاشت رغبي.

وزاولت عرضي، وافتكرت:

الزمن أشد الأعداء فتكاً.

١٦٧

Twitter: @ketab_n
بدا لي السجن في ذلك النهار الجحمي، أكثر رحمة، وراودتي مرات فكرة العودة إليه، خاصة عندما سقطت الشمس عمودياً على رأس كسيح النار، فانحنى ظهري على هزالي، لكان الحرارة لونه، فانفوذت، واحست أن دماغي بدأ يسيح.
صار غصن السدر يطققق لكانه عيدان زُميت في موقد مستعر.
تناولت من كيس أسمني عبادة مهترئة، كنت أستخدمها، أقص منها خرقاً ولفافات لساقتي، رفعتها على رأس الغصن، بدت في ذلك المشهد كجندى رافعاً راية الاستسلام، بعد وقوعه في كمين، وكان كمين أو فخ ذلك اليوم من تدبير كوني.
لكن الشمس تضاعفت، وصارت شمسين، واشتغالها أصبح واطئاً أكثر من ذي قبل.
ورأيت ما رأيت...
... رأيت نفسي من موقع مرتفع، صرت أتفرج على حالي، لكاني عين ثلاثة ترانجي من السماوات. سخرت من بؤسني. كان منظري يثير المرارة والضحك أكثر من الأشفاق.
هذا، كان يحدث لي عندما كان يهوي عليّ «الضبع» بسياطه.
وبالفات لحم ظهري، وأدخل في ملكوت الغياب. كنت أرى جسدي من عل، وأراه ينهال علٍ، ويرفو في فمه زيد يتناثر تحت السلك المعدني. ويخلط أني نوي بروح السلك وهو يصفف الهواء قبل ارتفاعه بجسدي.
نعم.
رأيت نفسى من موقع مرتفع أجر ساقى، رافعاً رأيتي وتبعتني كلبي.
ورصنت نفسى تنادي علي بالجاد والصبر، وعدم الاستسلام.
يدو أني كنت في موقع البرزخ الفاصل بين حالتين، حالة الحضور الشفقي، وحالة الغياب المظلمين. وهذا يعني أني لم أكن فاقداً لوعي بالكامل، ما يجعل الخيال يملأ أمر الصورة، أو الحالة التي أنا فيها.
وتضنيني هذى المشاعر، واختلاط الواقع بالرؤى وحضورى بفناوي، ووعي بلا وعي...
صوت عميق صرخ بي، اهض، لا تتكسر.
قلت لنفسى، هي الرغبة في النجاة وغريزة البقاء. وارتميت عند واحد من تلك الكائنات الصخرية. اعتيرتي قشعريرة عندما تخيلت نفسى ميتاً ووحيداً في هذه الصحراء، تتنظر أطلولي جوارة الطيور لنقاط مني.
هل تقبل يا فرند أن تبقى وحيداً. وماذا ستعمل لو غلبني يأس، وهويت نحو قاع الموت، وماذا سيحل بك؟ وماذا ستعمل بي؟ ستجريني

170

Twitter: @ketab_n
من سأقي لتنفدني، أم يغلبك الجوع وتمرزق من لحمي. ستأكلني أيها الوعد، أم ستطلق نباحاً حزيناً معلناً موتي للأبدية وتركض في هذا العراء، وتتلقى مصيرًا مشابهاً؟
بودي أن أخبرك قصة حب يا فرنيد، ولكن لا قدرة لي بعد على الكلام.
هل صرت تحبتي؟
نظر إلي فرنيد بعيدين زائتين، ونبح نباحاً تودداً. كنت أصف نباحه في كل مرة حسب رغبتي، ولا أعلم إذا كان نباحه في تلك اللحظة يعبر عن نعوذته نحوي.
لقد أصبح كلانا بحاجة لآخر، وما يجمعنا هو توازن الحاجة.
بدا لي أن مقوتي طولاً قرب هذه الصخرة التي لا ظل لها يكفي لحمايتني، سيجعلني أستسلم لخدر الغباب، نهضت.
كان فرنيد يحس بي في تلك اللحظة أي خسرت مقداراً من قدرتي واحتمالي، وأن جسدي بدأ يوخن رغبتي، أمامي بدون تردد!! كان فرنيد يسعى أحياءً بأمان، ثم يقف ويلفت نحوي، وينظري، وأحياناً يعود إلي، ويلتقطني بعضة حرفية من بنطللي، ويسدني إلى الأمام.
وبينج علي، نبح...
لكنه يحذرني من الاستسلام أو السقوط.
يعادني أن أرى نفسي من موقع مرتفع، ضيئلاً، شحيحاً، هزيلًا، بطي، الخطوة، رافعاً راية استسلامي. كانت يدي تصاب بالخد،

Twitter: @ketab_n
أربيها قليلاً كي يخف تمثيلها، وأعيد رفع الخرقة لتمامي رأسي
ودماغتي من التلف والغليان في ذلك الجعيم...
لم يعد بمقدوري تبيان ذلك الجسم الغريب، لفزع الغشارة التي
بدأت تصيب عيني. توقفت قرب صخرة أخرى أقل بؤساً مني، وأقل
وحشة، تشبه امرأة عجوزاً حانية بدون عكاز، احتميت تحت طياتها.
شريت من مائي، بدأ كالبول.. مضيغج حية من النمر، وتركت النواة
في فمي.
ترك النواة في الفم وامتصاصها على مهل يسقي الروح.
هي حكمة قديمة...
حكمة الصحراء...
وزاولت عرقي...
على بعد أمطار قليلة مني، يان هيكل عظمي في وضعية الاستلقاء
على الظهر، يده ممدودتان على آخرهما كالصليب، ووجهه نحو
السماء، تماماً، لا إمتالة فيه. بدأ ضاحكاً من هذا العدم المفرط، وهازناً
من سعي، ومن منظرين الموجي بفخته القادم لا محاولة.
يا إلهي، لكأنا نجسي فقاع الدلالة لذا سأكونه في هذا الهباء، ولو
بعد حين.

من يكون صاحب هذا الهيكل؟ هل هو واحد من الذين هربوا
من السجن، أم لرجل ما ضل طريقته مثلي؟ وكيف لي تبيان ملامحه,
وجهه، هوته؟

من يكون هذا الرميم؟

شاهد فرد مثلي، أشاط بنظره عنه ولاذ ببي، (ناعصاً) مقدداً مواء
هرج رائع...

علا منسوب الوحشة...

على كل حال أيها الرفيق، لم نكن نهاية السجن أكثر رحمة من
نهائيك، التي لا أعرف كيف بدأت خطوتك الأخيرة نحوها، قبل أن
تنهار، وتجلو، وتمدد على ظهرك، وتسليم الروح لخالقها... ولا أعرف

173

Twitter: @ketab_n
بماذا فكرت، أو تذكرت، وأ لمن اهتمت، وماذا رأيت؟ لا أعرف.
لا أعرف من أين أنتت إلى أين كنت تبني الوصول. من ودك؟
من كان ينتظرك؟ من شاهدك للمرة الأخيرة، غير هذه السماء المشتعلة،
أو ليلها البارد...؟؟
ولو كنت تستمع الآن لرويتك لك عن هل ذلك الليل، حين قصف
السجن بأطنان الحمم، حيث لم ينج منه أحد، سواي، نجوى،
نجوى وهذا الكلب. هذا كلب السجن، صار كلبي. تخيل الأدوار
في الدنيا، كيف تبدل...
لا أعرف كما تعقبت قبل هذا النوم الحطام، وكم عطشت، وماذا
رأيت في خلايا عقلك وهو يستقبل الأبدية.
علا أكثر منسوب الوحشة.
... على بعد خطوات منه وجدت كتاباً مهترئاً، تقدمت نحوه،
انحنيت والتقتنيه، كان مهترئاً وباليياً. كلما قبلت صفحة منه تحوّلت
إلى غبار.
الكتب مثل الناس، كلما اقترنت صفحة من حكاياتهم، تحوّلت إلى
غبار.
لكي بعد بضع صفحات مصابة بالبلاء الكلي قرأت: إذا ضاقت
بلد الدنيا فسر، وتبين أن هذا الكتاب يخص أحد المتصوفاء، النفري،
ما الذي أوصل هذا الكتاب إلى هنا؟ هل كان رفيق النبي في سعي هذا
الإنسان؟

174
لا أذكر أحداً من رفاق السجن، كان يقرأ كتبًا من هذا النوع.

ازدادت قراءة المصحف، في الآونة الأخيرة، التفسير، وسير الأنبياء

وما شابه ذلك.

لcki عرفت رجلاً اسمه بلال الدمشقي، كان بريو أحياناً عن حالات تنتابه، وعن رحلات يقوم بها خارج السجن، دون أن يراه أحد، كان ذلك في بدايات قدوئي، ثم مررت سنوات لم أعد أرى فيها بلال.

كان البعض يقول: إنهم أطلقوا سراحه، وإن أمر السجن خيذه بين البيفاء في السجن، أو الخروج إلى حيث يشاء، بشرط أن يمشي وحيداً...

كان بلال الدمشقي يقضي معظم أوقاته مغمض العينين، في جلسة البوعة، وحين بدأ بها حالة العثور والكشف، كما كان يستمتعها، يرتجف كما لو أنه أصيب بصاعق من الكهرباء. ترتخي عضلات وجهه، وترتمى على محيطه انسجاماً رضى، واطمئنان، ويبدو خفيفاً كأنه في حالة طيران، في سلام كلي.

سألته مرة، ماذا ترى يا بلال حين تغمض العينين.

كان يرد رأسه رأيته ورايته فيه...

ومن هو؟

لا يجيب. ينتمي، ويشرب ماء، ويأكل حبة تمر بلوشكها على مهل.

كان نباتاً لكنه لم يعلن ذلك أمام أحد، خوفاً من ذلك اللعين الذي رأى مرة يبكي، عندما شاهده على الشرفة يذبح الحمام... يُعده لمائدة شهواته المرضية.

175
 كنت أقرب إلى الإيمان بما يصيب بلال من حالات تجلٌّ.
مرة قال لي إنه رآني في منامه، أعبر الصحيحة بعمرتي وأغني،
ويتبعني صاحب ممحوها ملامحه، ليؤنس وحشتي.
وغدًا سألته: هل وصلت؟
قال لي: صحتكات على صوت ذلك البغل يعبر في السماء،
انهضوا يا بقر... هو «الضعيف»... وتركتك نمشي في المناجم...
رأيته، رأيته ورايتني فيه.
أتيت صوتي، من حيث هو معده، هيكلاً نخراً، فقد به الزمن
ببطيء...
لا أصدق ما سمعته.
إنها تهورات. هكذا قلت لنفسي، عارض من عوارض الحكيم
والغيب. أو هو صدى لصوتي ينبجس من أعماقي...
لكن الصوت ثمانية تردد. رأيته، رأيته ورايتني فيه.
يا إلهي، هل ينطق الرميم؟ تخيلت الصوت يخرج من بين فكيه
المصرين نحو الله. وشاهدت أمامي في أبهرة السراب بلال الدمشقي
بقامته المنحنية، يتحول الأقرب إلى غصن يابس ورتفاعاته الغريب.
الذي كان يلبسه، بريقته رأسه الزرقاء. لم أر وجهه، رأيته، يمشي أمامي
وبمدى إلى بده أن أتبعه، بلنفت نصف الشفافة لا تفصح عن ملامحه،
وبيده الناحلة يحتفي على العجل...
قلت لنفسي لا يعقل، هذا جنون، هل ترى ما أرى يا فرند؟ لا فرند

176
بالصمتم. لو كان ما أشاهده حقيقة، لكان كمبي نحب، نباحاً وقائياً أو تحذيرياً.

إنه بلال لا محال. يسرع من خطاه ويلطح لي بيه. وحين بدأ يتلاشى في السراب البعيد النفث نحو، وصاح: إذا ضاقت بك الدنيا...

فسر...

إن فيك طاقة يا يوسف توصلك إلى آخر الرمان...

سماني يوسف... اسم من أسماني.

ارتفع بدني
ودخلت في بعز الغياب...
لا أعلم كيف وجدت نفسي في هذا الخراب وسط بلدة مهجورة،
ليس فيها ما بدل على بشر، أو كان يراول حيائه.
بيوت من حجارة وطين، متداخلة، متداخلة، تتن في عزلة أبدية،
متتاررة حتى سقف ذلك الجيل البركاني، تفصحه، تأمله، هو ذلك
الجسم الغريب الذي تراءى أمامي قبل يوم أو أقل، أو ربما أكثر.
لا أعرف كيف ومتي وصلت.
هو الآن ورائي قريباً وشامخاً لم يبقى لدورات الأيام، ولا لعصف
الأنواء... أو التبدل.
أسود، بركاني، لكانه نجم هائل سقط من الكون، وانطأ على مهل
بالقرب من هذه القرية، وما زالت الأدبية تتصاعد من جوفه... للوهلة
الأولى بدا لي أنه هو الذي سبب هجر هذا المكان، بعد سقوطه
المظلم...
وتذكرت تلك الصخور التي مرت بها، لكانها تشظيات عمالقة
تطاربت منه وتدافعت في الخلاء، واستقرت، حتى تبدو كأحافد له...
يرفع عزلتها من عظيمتها بعينين ثابتين الرؤية، محيتين بالحكمة.
لكننا أقطعنا هنا، من زمان، أو مرت بهذا المكان بحلم، أو

179

Twitter: @ketab_n
منام... وهذا الجبل تسلقت إلى قمةه ماراً، وأشرفت منه على العالم، العالم الصخري المتنااثر نحو الشرق الصحراوي، على شاكلة كائنات أسطورية، أو آلهة قديمة...

هل هو الجبل الطائر الذي صار يسمى جبال الغربان؟
من هذه الزاوية التي أراه منها، هو نفسه تماماً، مثلما شاهده في طفولتي. وسألت جدتي عنه، وقالت لي: هذا طائر عملاق سقط من السماء، فانغرس واحد من جناحيه في جوف الأرض، وبقى الآخر طليقاً في الهواء. حاول التهوؤ والتليقي ماراً وأخفق، فتناثر ريشه ونبت أصابع الجناح مسننة. استكان واستسلم لمصيره الأرضي، رأسه مرفوع نحو السماء، عيناه شاهدتان نحو الفراغ الكوني.
فتتحان هائلتان يصدر منهما حين تهب الرياح، نواف جنازي. وعندما كنت أسأل جدتي كيف وقع هذا الطائر وتحجر؟
كانت تقول لي كأن يحمل على جناحيه خطايا الناس، ولكثرة ما زاد حمله انكسرا واحد من جناحيه وهو؟ فتناثرت الخطايا في هذه الصحراة...

تَرَى هل تلك الصخور التي مررت بها، هي خطيانا؟
لكم تُضني هذا الخيال؟ يا جدتي...
اذكر كنت أجلس لساعات داخل هذه الفتحات، وأقلد أصوات الكائنات من حيوان وبشر، فيتردد الصوت مراراً. يخرج من الفتحة المقابلة، يبتلع، يدخل من جديد ويدور في مسالك ينز منها الضوء

180

Twitter: @ketab_n
هَمِيب وَجَلِيل هَذَا الْجَبْلُ، يَصَاب بِالرَّهْبَة مِنَ كَان يُزُورهُ وَيَجْرِب صْوَتُهُ فِي كِهْفُهُ.

إِذَاً هَذَا الْجَبْل الْطَائِرُ، وَالبَلَدَة الْبَخْرَاب اسْمُهَا «وَادِي الدَّمْوَعُ»،
صَارَت مِدِينَة الْجَسْرِ، أَعْرَف مِنْ سَمَاها مَدِينَة الْجَسْرِ، وَلَكِن مِنْ سَمَاها
وَادِي الدَّمْوَعِ يَا جَدْتِي؟

أُوْلَى كَانَتْ أَسْتَلْقَى، حِينَ أَتَمْدَّد فِي حَجْرَهَا لَأَسْلَالَا وَتَجْبَأ أو
تَغْنِي... حِينَ تَتَعَسَّر عَلَيْهَا الْجِباَيْة... مِنْ بَكَّي هَنَا سَوَا كِيْ يَا جَدْتِي،
وَسَوَى أَهْلِي بَيْنُونَا مُهَدِّي؟

كَانَتْ تَقُول لِي: «الْطَيْحُور هُي الَّتِي يَبْكُتْ».

وَهَلَ الطَيْحُور تِبْكِي؟

هِي تَبْكِي وَنَحْنْ لَا نَرَى دِمُوعُهَا.

بَكَّت الْحَارِي نَعْمِ يَوْمٌ فَطَعَ الْمَسَانِهُ. الطَيْحُور تَنْحِب غَناء نَعْمَ، وَبَكَّت
مُهَدِّي... وَفِي النَّهَارَة بَكَّت عَلَى حَالَّهَا يَوْمٌ عَادَت مِنْ هِجَرَتَهَا وَلَمْ تَنْجِد
شَجَرَهَا وَما بَعْدَاهَا... 

لَيْس مِنْ أَحَد هَنَا، بَاقِ سَوَا كِيْ أَيْهَا الْجَبْل الْطَائِرُ.

هَلْ يَبْقِي شَيْ مِنَ النَّاسِ، مِنْ أَرْوَاحِهِمْ؟ مَثَلَا يَبْقِي شَيْ مِن
أَسْمَالِهِمْ، وَحَاجَاتِهِمْ.

صَرَت شَاخِصًا نَحْوُهُ، مِثْلِ إِلَه قَدِيمِ عَيْثُ عِلَى، لَيْس لَدِيّ قُوَّة

181

Twitter: @ketab_n
لاحتماله أنت كنت أفعل قديماً. لكن لدي رغبة جارفة في ذلك، ربما لكي أتحسن تقديراتي وأتفحص بقيني، لأن حيرتي كانت تقضي على أمر يقيني وشكوي.. حتى صرت غير متأكد من وجودي الفيزيائي.. لكان حياتي حلم في منامات أنس آخرين.
عندما رأيت نفسى من موقع مرتفع، عندما كنت أراوح على برزخ الغياب، على شاكلة فاصلة بين نصين، بين الحضور والغياب، رأيتها، تحديداً من هذه القمة، وحربت أكثر في تفسير ذلك.
كيف سبقت نفسى إلى قمة هذا الجبل، أناجر على عرجي في مئالي؟
على حالة زوالي، لكان بعضي السليم يتفرج على بعضي المعطوب!!
وهل بعضي سيق بعضي ليخلصه من فنائه؟
حتى رؤيتى!!
ثم فطنت إلى فرند، لكأني لمحت، عندما كنت أتامل بشيء من الرهبة، هذا الجبل. لمحته بروح ومجيء بين الخراب، يدخل ويخرج من أبواب مشعة على النسيان.
وقعت في الرب، عندما ناديته، ولم يأت أو ينحى... صرت أتفقد هذا العالم الذي صرت فيه. ألفت بنيسة وبنية، أمامي وورائي... هل كنت في حلم؟ أم في حالة من الغياب الكلي؟ ما الذي جاء بي إلى هنا؟ ألمعنى في الجبل، وأتخيل من قتله ما يمكن أن أراه، أو أتذكره، كان أرى جسدي أجزه في العراء، وأتفقد جسدي، وأشيائي، وأداء ووظائف حواسي، وأنادي فرند. أسمع صوتي، أتحسس ملمسي، أن أحمل

183
كمشة من ترابه، أشم رائحة التراب، ورائحة البيوت الخرية. للبيوت المهجورة رائحة، هي رائحة الهجرة والنسبان...
صرت أقترب من الأبواب الوططة، أنحتني، وأبدت رأسي نحو الداخل، أنفقدت داخلها، لا شيء سوى البلاء الكامل للعناصر. آنية مارس عليها الزمن فعل الاهتقاء.
لكن الزمان أسد يذيب الأشياء...
أطل فرند اختفاءه، الأمر الذي زاد من شكوكي، وجعلني أفكر بما أنا فيه من وضع شبيه بالحلم. ولكن دائماً وكعادتي استخدم مقدار من وعيي بالأشياء وأحلل لأخصل إلى القول: إن هذه الانطباعات ليست بجدية على...
سمعت نباح فرند، يأتي من مطررح غامض، رح أن تقدم صوبي مصدره، وأناي على شيء من التربة والحذر. لكن صوته كان يتعاد أمامي نحو الجبل. شاهدته بعدها صعوداً في سفوحه، وعندما وصل إلى القمة أطلق نباحاً قررت صداه وتحول إلى عواء يشبه الذي في ذاكرتي، وفر من كهوفه سرب من الطيور السود مولولة حجبت شمس ذلك اليوم وغابت في السماوات البعيدة...
عاد فرند وفي شدته طريدة، بدأ متهماً، بانتصاره. لم أفتحر بإنجازه، غضبت طيفي، كي لا أخرج عليه نشوة الانتصار.
هل الأمكنتة تشانبه أحياناً مثل وجهو الناس؟ أسال، آنامل. أم أني

184
من هنا بدأت رحلتي، وخطوتي الأولى نحو هذا الجبل الذي شهدت قمته العالية المشتركة نحو السماء، إيفاء نذور كبيرة، وليالي مغمورة قضاها الناس يقرعون طبولهم، ويتلوون تراتيلهم ليطردوا الشياطين من الفلوان، وبواعث الخطيئة والشر...

وهذه البيوت، فيها رائحة من رائحة أهلي، ولكن أيّن وأيّ أصحاب هذه الديار الأبدية؟ هل غادروا يوم حملتي والذي وعادنا على عجل؟ هل غادروا مثلنا إلى أوطان أخرى؟

دلفت إلى داخل إحدى هذه البيوت، فأحسنت تحت بقايا سقف أمهل أو أهلبه الدهر في دورات سنيه. تحت نافذته صندوق خشبي مزخرف ومطعم بالنحاس، وفي أرجائه آية وأدوات زراعية معطرة، تقدمت من الصندوق ففتحته، رفعت غطاءه، فأصدر صريراً. تفتت خشبي باعثاً غبار التلف. خشيت أن تخرج منه تلك الأفاعي الصحراوية، حركت بعكازة محكوياته، ثَّبت لم يصبها الاتهار، وفي قاعه أوراق تصفحها، مستندات وحجج تثبت ملكية هذا البيت وعفارات أخرى مجاورة لفاصل العلن

تذكرت صندوق أهلي، وصورة أخي مهدي التي كانت تخبئها أمي، تخرجها بين حين وأخر ونقيم مندبة الفراق.

وعرّفت في ما عرّفت، على صور تخص أهل البيت، يعود تاريخ بعضها إلى عشرينيات القرن العشرين، يبدو أنهم مثلنا غادروا على عجل وتركوا ذكرياتهم، لم يتمكنوا حتى من تذكيرها كي يحملوها.

١٨٥

Twitter: @ketab_n
وعادة الناس في هجراتهم يحملون ما هو حميم وضري وخفيف.
بعض الوجه، في الصورة، كان لها مطرح في بالني، مجموعة من الرجال بالبنادق، كل تلك الصور التي أذكرها عن الثوار القدامي... لعل هذا الذي يتوسط الصورة، هو فاضل العنزي، صاحب البيت.
ليس بوسعي التأكد من ظلوني. لكن الذي أعرفه بقينًا، أن كل الرجال الذين لم يتمكنوا من الفرار، أو أصرّوا على البقاء، اقتدوا إلى الصحرا، وتركوا لمصائرهم، حسبما كان يري والدي. أما نساوهم، فحملن على رؤوسهم صرراً وعلى ظهورهم أطفالاً، وتشتتند في الأرض.
القرية أمامي، بدت متروكة للهباء منذ زمن بعيد، وذلك الجسر الذي نسب إليه السكان واصبحت وادي الدموع تعرف بمدينة الجسر، ينصب فوق الخواف والجفاف. لقد تفلقت الترية في الفي القاع من جسور الأيام والعطش.
كل شيء بدا أصغر بكثير مما كنت أراه في طفولي. أضاف عليه أسيد الزمان اهتراء وضموًاراً وامعاً...
كانت الشمس قد غادرت مستقرها الجحيمي وسط السماء وراحت تنحدر وراء الجبل الذي بدأ يبدد ظلاله على البيوت، كعباءة الجدة التي تدثر أحفادها في نهائهم.
حاولت تقسّر ما حدث لي، ما رأيت في عُر الظهيرة. وحاولت تذكر نفسني بين نقطتين في المسافة التي كانت تفصلني عن هذا المكان. لم أفلح، لم أذكر سوى أني مرمى وسط هذه القرية. لكثي كنت حمولة زائدة في قافلة، تخلصوا مني ومضوا بحمل أخف، وأن قومًا مروا بي وكنت مغمٌّ عليّ وسط الصحراء، وحلموني أملًا بنجاتي، وحين فقدوا الأمل بذلك وظناً أني مات، رموني هنا وتابعوا إلى غاياتهم، وكانوا على عجل، إذ إنهما لم يوارا جسدي في التراب.

187
في الواقع، لا أعرف على الإطلاق، كيف وصلت. بدون نفسي أكثر هشاشة وتفاحة، ومجانيّ حضوري بشكل معرق، وأنا هكذا مشدد أو متروك كخزعة تحركها نسام ساخنة، فأزداد جفافًا وبياضًا وضيأً. ولولا إحساسي بهذئي، لما كنت تأكدت من مزاولة وجودي على هذا القدر من الرئة.

ما بقي من سقف ذلك البيت حماني من الاشتغال الكوني، وما بقي من ذكريات أهله جعلني أتحلل فلولهم ووضوحاتهم وهم يغادرون بأجسادهم المكشوفة على ظلالهم، إلى مطاحن ما خططوا مرة للعبور فيها أو الحكور، تماماً مثل حالياً، عندما حماني أبي وكتأسائه إلى أين يا أبي، فيقول لي على باب الله. ولكن كان ذلك البيت بعيداً، قبل أن أدخله.

صنعه والدي من خشب السنديان في وطنه الثاني تلة سليمان.

وتكافل أهل القرية ونبنا لنا البيت الحجري. من ذلك البيت دفعت إلى بستان الرمان... وأذكر. كنت أسأل: إلى أين تسير يا أبي إلى أين تأخذني؟... على باب الله.

وتصعد البغال تلا آخر، يطفّق الحصى تحت حوافها ويتعبّ، وتندحر خلفها، ويشعر فلولنا غيّرٌ بعید، وغروب وعرة وأسراب طيور. أطلق خصر أبي يبدين ناحلتين، أنشيط بيزاره، أغرس أصابعي خلف حزاه الجلدي.

Twitter: @ketab_n
وهل باب الله بعيد؟
يضحك، وينحني ويقول: بعد كم يوم.
وتحدر البغال من التل، يذهب رف من الحجل، وأنا لا أعرف
الحجل، ي琹د قليبا وأصرخ، ما هذا أبي؟
- هذا حجل.
تعدّل جدتي من ركوبها، تارة خلفها خيطاً نحولاً من الغناء...
تشتت عظامها الارهنة.
- ما بك؟ يسألها والدي. وتجيبه على مضض: انعقر قفاي من
الحنجلة. شو مفلكني صيبة...
يضحك والدي، يلفت خلفه ليطمغ على أمي التي تغيب في
صمتها، نكاد نسمع نهادتها، ساهمة في الغيم أو في العدى، يشبل
جسمها مع وقع حواجز البغال.
- شو خبارك يا نسرة؟ تعني؟
- شوي. يحلل ويسرارة، أجابه، رفعت جسمها قليلاً متمسكة
بطولق رسن البغال لتعدّل طراحتها التي ثبتتها فوق السرج.
وتشير جدتي: اللي ما معد ركوب النخيل بينقر.
جاوبتها أمي: هذي بغال مش خيل.
لا يحمل هذا الكلام آنذاك أكثر من معاناه ومدلولاته المباغرة.
كانت أيامنا لا تحمل خصومات. أيام ألقفها كحجر الرحي مقتل
أخي، وهجر البيت.

189
تدفق البغال حوافرها.
غناء جدتي، خيط من النحيب.
"في وجهي باللي من سنين، في حزن مثل الوشم مثل كحل العين .." أذكر ذلك.
أتأمل القسم الباقى من سقف تلك الخربة، لكم بدأ لي رحىماً وحزيناً. حزمة الضوء التي تخترقه تؤكد حضور الغياب.
آنية من فخار مائلة على نفسها.
ما أراه، تجسد بلبغ للعزلة.
وغلبني ملاك النوم ...
في تلك الغرفة التي سكنتها في بيروت في وادي أبو جملي، بين عامي 1978 و1983... كان الأمكنة القديمة تزور أصحابها في غفواتهم، عندما يتعصر على الممر تفقدها أو زيارتها. تأتيهم في أوقاتهم تضحك وتحتويهم، ثم تغادرون على البرزخ الفاصل بين البقعة والنوم، وتر كهم في حالة الانتباه والشوق.

حرف نسيم بارد رموشي، وغبار النوم. ففتحت عيني: السماء كاملة الوضوح من نجمة، هائئة ودانية، واطئة حتى حدود السقف، هكذا رأتها. استدعاني المشهد الكوني لسكتيه، رمي لي بخيل لأربط جسدي كي يرفعي إليه. شعرت بطمأنينة وسلام داخلي، وأحسست أنني أخيل مشاهدة ريشة طائر عالقة في الجبل الطلق.

وشعرت باستعداد للمغادرة والارتفاع بجسد أخيل من رحمة. صرت أغمض عيني وأفتحهما، إصراراً على الدخول في هذه الحالة والانتحام النهائي في هذا الغيب. ولكن إصراري صار يعطي مفعولاً معاكساً لرغبي في الدخول في تلك الحالة التي راحت تبدد، رغم

191
إصراري على الانسحاب فيها إلى الأبد. صارت تتلاشي شيئاً فشيئاً،
وكان الدنيوي الطاغي الذي داخل النفس هو صاحب القرار النهائي،
هو المسير للجسد، مهما كان الجسد هزيلًا ومعطوبًا وهشاً.
الدنيوي يغلب؟

عند هذا الحد، تأكدت من الحضيض الذي زُمي به المرء، ضحية
وجلالاً. حضيض عفن، وقاع فاسد، لا أحد ينجو فيه. إن كان في
واحدة من تلك الملاء التي تشبه سنجى الصحراء، أو شريداً في
مغامته...

وتذكرت أن هذه الأفكار لطالما كانت تراودني منذ خروجي من
بيت معلمي الأول، الشيخ عبدو، حين ختمت أجزاء القرآن. كنت
أجتهد في غير تفسير، ويبعس سيدتي بالهلع صاحبًا بيه: أنت مارق
وزندقي يا فتى، تحرك في كلام الله...

لا، لا يا شيخي، أفكر فقط.

وما زلت أفكر... وأعلم أن الفكر عبء على صاحبه.
هيئًا للمجنون. يقول شيخي، عندما يشتد بيننا الكلام، يقول لي:
مخلب يابس مثل النسي، انصرف.
 كنت أصرخ وأتحرك في حيرته، يعدل عمامةه، ويداعب جمر
موقدة يعكازه، ويشقق الجمر...

وقلت له سلاماً لنفي علمني، فك الحرف لأورر قميص الحرير...
وأعلم أن سيب كل شافعي، هو رأسي، الذي حشره مرة في صندوق

192

Twitter: @ketab_n
السيرة، مثل ذبيحة، وحملوني إلى (عملية تأهيل) كما سمواها!!

رأسي، هذا الذي أرغب أن يصاعب كل ما فيه بالإحاطة التام.
لا أعرف لماذا اجتاحتي الرغبة في البوح، أو في القص، أن أحكي
لهذه البيوت المهجورة، حكاياتي. أن أقف على نوافذها التي تشبه
العيون التي انتظرت عودة ما، وأختلس من حمولتي في الحكاي، من
حمولتي من الصور المكدسة في رأسى، كمستودع لمصوروفوتوغرافي
اعتني بكل تفصيل حتى فاض بالصور وغرق. بدلاً لي المكان يبكي فإن
لاعب دراما. لاعب وحيد يطل من الأبواب والنوافذ ويسلق الجدران
المتمدبعة ويدكى...

ترى هل هو الدنيوي الره الذي بداخل، يتحمل في نفسي
ويحضني علىإنحد منفذ للخلاص؟
وهل الكلام هو منفذ للخلاص؟؟
من أين أبدا، وأين آنثني؟؟

أشعر بحيل يشدني إلى رحم أمي، إلى هذه القرية التي لم يبق منها
سوى جدرانها المتهالكة. وحسر لم يعد يربط بين ضفتي، ونهر لا
نهر فيه. وجلب أبدي كان صار أكثر انحناء عمداً شاهدته من قبل، لكانه
حاول أن يخبئ أهل القرية حين أجبروا على الافتعال، أو حاول اللحاق
بهم فأخفقي لشدة رسوخه ونهائية مكانته، فصار مطحوناً، بهم بالشهر ولا
يقوى على أن يقطع نفسه.

كانت تروي لي جدتي عن وادي الدموغ وتذكرها بالخير...

193

Twitter: @ketab_n
وادي الدموع. تغيرت وتنافست بشكل مريح. «اختفى أجمل ما كان فيك وبحبك». كانت تقول الجدة، من غير مجراح يا وادي؟ لا يشتكى الاماء لمجرء؟ جميل أن يكون لمجراهان. في كل سنة يُبدد سيرته كي لا يصاب بالملل. جدتي كانت تقول إنهُم غيروا مجراح إلى الأبد، مثلما غيرونا وطننا إلى الأبد.
وعلمت أن تلك الحكاية عن النهر لم تكن لنوم العشبات في ليالي السام في ثلة سليمان، بل هي حكاية وادي الدموع.

«مِين غيّر مِجرِّاك مِين سَمّاك يا وادي مِين خلاك لا ميْ عالٍ فيّ إِشْتَقتَ يا سُتي لِريْحَة بَلَادِي»
وأغفو على تلك الحكايات...
علا غيم الشوق في خاطري...
تراني الآن وانا في هذا الكلام الذي يتردد في ذاكرتي، بين مطرحين،
ثلَة سليمان في عشبات الحكاية، وهنا في وادي الدموع. وقلت إذا كان حقيقة، هذه القرية هي قرية أهل، فلا بد أن أعثر فيها على شيء منهم بفي هنا.
رائحة ما.

نخلة، حجر، حتى لو محا الهجر الطويل والجفاف كل شيء.
ما زلت مستلقياً على ظهري، وسمائي دانية باحتشاد هائل لنجومها،
ونسائم منتصف الليل تحرك في نفسى رغبات دفيئة في أعماقي، تريح
عنها التأكد الذي فعلته سنوات السجن.
وجدتنى مهماً لها على غير عادة.
شممت رائحة زرع ندي، وتراب بَرَوَى وتمتم في نسيبى الماء،
وبترنح.
شممت رائحة ورد.
أغمضت عينيّ فشاهدت نفسى أجري في سهل القمح خلف مريم،
وأرتمى على السنابل، أشدها من يدها فترتمي قربى، ونغرق في رائحة القمح والعشب...
يا الله كم هو موجع هذا الشوق والحنين والاختلاف في المشاعر...
نهضت.
لا أعرف بأي جسد، لكأني نهضت بجسد الفتى الذي كنت في
ضحى أيام ثلة سليمان. وقالت بصوت عال:
سلام لمن علمني فك الحرف، لأرر قميص الحرير لأول نفثة على
الضحى... شيء من حكايتي مع مريم. واحتشدت في جسدي طاقة

190
الإفلاس منه، من تحره وأعطاهه، إلى عمري الأول، إلى حقل رمان أبي.
وجين هممت ووقفت. رأيتني أمراً ساقياً مثل طريدة أو فريحة أخطاه.
الموت فأتلقت بالعرج الطويل، فاستخدمت سلاحي القديم الذي فيه قدرة استثنائية على احتمال ما يصعب حمله.

تهكم...

سخرت من بدني المعطوب، قبِلت، وإن كنت غير موافق. وشمت عرجي، ونادت كلي. كان مستلفياً قرب الحائط، تمطي، تمدّد كثيراً.
بدأ أطول بكثير من حجمه. نهض. اتفقت كأنه يتخلص من عبه النعاس والتعب والغبار. تناوب شاخصاً تحوي، في انتظار مبئري أو قراري في فعل شيء.

فعلت.

سرت بهمة المستكشف نحو الجبل. بنية التفقد والتأكد من هذا العالم الذي أنا فيه.

حين وصلت القمة وقفت متمللاً في نواحي الله، شعرت نوع من جلال الحزن الذي يصيب المزد، في مثل هذه الأحواز، وبدوت لنفسي مثل نبي.
وحيد سيبشرف نفسه فقط برائسة إلهية، وليس من أحد سواه ليتلع عليه رؤياء.
نظرت نحو السماء، تنافض البدر بعض اللمبي، لكن فضي ضوئه كافية لأرى المدى المتاح أمامي. رأيت قربة أهلي من على قمة جبلها الوحيد. وفي المدى الآخر بانت تلك الصخور التي مررت بها، وقد جعلها ضوء القمر قامات بشرية، تعبر ليلها الأخير قبل الوصول...

196

Twitter: @ketab_n
علا أكثر غيُم الشوق في خاطري
قرية، لا روح تحوم في نومها، أو فوق سطوحها المهارية... أما
النهر الذي يبدو كاملاً من هنا، فما زال مجريه يفلق البابك نحو الغرب.
أما أشجارها، فلكان حطباً تفرغ لإلافها ليقي جذوعاً حانية. صفين
منحتيين أمام مرور جنازة في طقس وداع. هي هكذا لعلها ودعت آخر
الماء يوم جففوا النبع...
ناديتي صوت من حاراتها، صوت يشبه صوت أمي، أن أنزل، أن
أعود قبل حلول المساء...
صدي لصوت نداء قديم...
ترى أين يقع بيت أهلي؟ وقع صوتي على صدري وتدحر جحو
الوادي.
ترى أين يقع بيتنا؟ صرت أخير بإصبعي نحو الحارات وأخمن، لكم
فعلت هذا وصية تلك الأيام، كنا نصعد هذا الجبل ونشير بأصابعنا إلى
مناطق بيوتنا التي نبدو بحجم علب صغيرة.
هناك بيت فاضل، وهناك بيت عمتى، وهناك بيت أهلي، كنت
أعرفه من شعره ومن سطحه الذي أقام عليه والدي خيمة من السعف
والقصب، كنت نما ليالي الصيف كاملاً تحتها.
كنا نقف هنا، حيث أقف، وينفح الهواء في قنايزنا، يكاد يحملا
kفراً، ونكاد نطير... تضافع الهواء في هذا العلو، وتضاعفت
برودته، وضاءعت من شوقي.

197

Twitter: @ketab_n
بدت وادي الدموع من تلك القمة أكثر هجراً ووحشة وعزلة،
أضاف عليها الليل المقرر مسحة من النسيان.
وقدرت أن بيت أهلي هناك، أشرت بإصبعي مثلما كنت أشير، هي
على الطرف الأقرب من السفح، على شمال الجسر، وتواتات مع
نفسي أن يكون ذلك البيت الغامض هو بيت أهلي.
ودخلت مثلما كنت أدخل في واحدة من تلك الافتتاحات. هناك فتحتان
عملاقتان تشبهان من البعيد عيني الطائر، مغارتان تندرج منهما مغاور
أصغر حجماً، سبع فتحات كهف، تفصل بينها كوى صغيرة متصلة بعضها
بعض مبتاعدة، وكأنها حفرت وفق تدبير حندي محكم ومدروس. تلك
واحدة من عجائب الدنيا. كانت تقول جدتي، عندما تروي عن الجبل
الطائر، أو جبال الغربان، في مواسم الربيع، حيث بدأ الغناء.

وقد امتتحت ذلك في أيامها التي عشتها في وادي الدموع.
دخلت فتحة وأصبحت في غدأ مرسى غناء الأبدية، هامسة، على
شاحنة لافحة خفيفة، يتكلمل إن غنت معه أو رافقته بدون توقف، على أي
اسم أو علي الله، ويصبح أكثر مطوعاً إن غنت من موايل أهل البادية...
ليبدأ الهلع بين الطيور التي تتخذ من كوى هذا الجبل، مسكنًا لها،
تفر من الافتتاحات معنها مخططاً مولودة في السماء، يتردد الصوت
ويأتي من أكثر من مكان، وكان جمهرة من النداءات يتناوبون على الغناء
الجنائزي، يزيد حلم الطيور معاية وفجعة.
لكن الأبدية تعلن مراسم جنازات كونية.
يدأ الصوت هامساً ويتصلب وتختلط الأصوات وتجاوي في صداها، ويحب الصدى صدى آخر، ثم ينجز هبوطاً ينتهي كخيط من النحيب مجهول المصدر. أو أحياناً في هروب آخر للهواء يتحول إلى آهات أثنيوية، جريحة وعثيقة، تبعث من أعماق الصخور وتخرج من الفتحات، كمن ينفح في قصب عتيق.

أما في مواسم الربيع، وفي هيوب الشمالي الذي يدخل مباشرة من الفتحة الكبرى، عندنا كأن أهل القرية يحتلون سطوح منازلهم، يرفعون رايات سوداء وينفرجون طقس الكساء.

هو طقس تنثرى، مصدر الندم.

يستمر هذا الطقس واحداً وعشرين يوماً، يلممون دموعهم بالرذابات التي تتفج في الهواء. وفي ذلك حكمة أن يحمل رحيق الدموع غفراناً إلى الجبل الطائر، ليحمي القرية من الزوال... حكاية الأسلف المتوازنة من سبعة آلاف عام، وقد حفرت بالسوسوية داخل الكهوف... على ألواح الصحراء الباركانية.

لذلك سميت فرنتا وادي الدموع.

حاولت تبيانها على ضوء فمري، لمستها، رأيتها، ولكن غير فقها بفك رموزها... لكنها هي التي فكت لعز شكوكي أو حيرتي. وهو أن وادي الدموع هي قرية أهلية... كانت في وعي، وفي مداركي الأولى مدينة. هكذا سموها مدينة الجسر، لكنها في أصلها قرية وادي الدموع، قرية زادها الهجر تخلطاً في أسطورتها.
لكنني أذكر أهل قريتي، أنهم بقوا يضموا هذا الطقس من العبادات.
في مواسم الريح، ويفتحون مع إمام المسجد الذي كان يصفهم بالملحدين حيناً وحيناً بالمشؤومين... أمراً هذا الطقس لكيهم ثم
ياهو املك تحريمة... كانوا يضموا فعل ندمتهم، يتعلمون السطوح،
ويلوفون للجبل بمناديلهم السوداء وراباتهم، يغنو ويكون...
وعن علي بالله الغنا، مثلما فعلوا.
لكني خشيت أن أصاب بحالة من حالات الوجد التي كانت تصيبني
أحياناً، وتتنزعني من جسدي إلى غير مكان وزمان.
وعلتني الرغبة في الغنا، تذكرت غنائي الرعوي في قرية مريم
نلة سليمان، فغنت ودار طرببي بي، حين النف الهواء وتردد الصوت
على شاكلة حوقة، من الفتحات... دخلت في حالة غائمة... ولمرة
الأولى بكنيت...
نعم بكنيت...
ربما ما كان ينقشني، هو أن أبكى، مثلما فعل الأسلاف هنا منذ
آلاف الأعوام. وفي تلك اللحظة أدركت لماذا بكوا بكواهم المرير،
أولئك الذين وقفو مكاني هذا. قبل أن يفتدروا ويرحلوا.
علا أكثر غم الشوق وهوى؟
لا أدرى لماذا انتظري كلبي عند السفح، ولم يرققي إلى قمي.
لكن عليه أراد تركي في وحدتي ليحرسهما من بعيد، أو كان الكائنات يحس
بعضها ما يختلف في أروااح بعضها الآخر.
ولكن يا فرند، لو كان الأمر كذلك لدارات الأرض دورات مطمنة
على ساكيها البؤساء...
ثم رأيني خجلت بعض الشيء من نفسي، ومن
شطحاتي الروحية، وعدت تطبيقًا إلى حطام البشري، إلى هشاشة
وحرقتي، وتدحرجت نحو جسدي، من تجليات العبور، في هذا
المكان الذي يقينيا ولدت فيه، وعدت إليه لتزداد حموتي، وبداد
شقاقي.
لا أحد هنا على الإطلاق. وليس من أحد ينتظر هذا العودة. اشتهيت
بداً تلوّح لي عن سطوح بيت أهلي، بدأ تضمني. شعرت بحاجة ملحة
لذراعين يطوّقان جسدي، وينغرمان غيابي.
وهبطت، هبوطاً قبيحاً من القمة، نحو بيت أهلي المحتمل.
تركت غناي الفجائي بدور، ويليّنف في الفتحات كزوابع البيداء.
وتداهمت نحو الجسر، تبعت فرند، وأطلق نباهًا ترحيبًا. اتجهت
صوب البيت الذي عانيته من على رأس الجبل وافترضته بيت
أهلي. قطعت الجسر، نظنت نحو فقاع النهر، أرض مجارا، مشققة
منفسخة، كروح مشنقة للسلام النهائي، أفلامها فاغرة جعلها ضوء
النمر مثل أقواس جائعة.
عبرت الجسر، دخلت في زاروب على جناته خرب تنذر زوالها.
وفي نهايته، لاح البيت أمامي، بسوره المتهاوي بدت خلفه جذوع
الأشجار المقصوفة، إحدها مثل مراة مصابة بالفجيعة، رافعة البلدين

201
مالة على خصرها، والبقية مصابة بالجزع، مبتورة، لكنها أخوات الأم
التكلي، أعين للموااساة، وأصبع بالذهول...
هو خيالي. قلت لنفسي، هو خيالي يصور الأشياء، انطلاقاً من فجيعة
صاحبها. ولكن يقيناً، تلك الصورة التي في بالي لصف جذوع الشجر
الذي توسطه شجرة بفصين عاربين متضررين، لا يمكن تخيله إلا
على هذا النحو، في تلك الليلة التي يصوغ قمرها السكان، وفق تخيلاتي
ورؤائي.
وصلت، فخفق قمي.
عبرت بوابة السور... تلك دار في بالي، أعرفها. فهو تحيط به
حجرات ثلاث، وعلى البسات، غرفة أصغر، كانت تستخدمها أمي
للطهو.
شُممت رائحة خيزي.
في الوسط بقايا من بركة ماء، كل هذا لم يكن قائماً، بل بقاياه تعيد
ترمويه في ذاكرتي.
وشاهدت نفسي في فجر بعيد، أخرج مع أهلي من هذه البوابة.
تحزني أمي من يدي، وأحمل فردة من حذائي في يدي الأخرى،
جمهرة من الرجال، في الخارج، تحتنا على العجلة. كان يوماً عاصفاً,
زاد المشهد غباوة. من هذه البوابة عبرت إلى الصحراء مكشوفًا في
شقلاب أمي... لأشهد ما لا أنساه: مقتل مهدي، أخي الذي لا أعرفه،
ولم أره مرة إلا في ذلك اليوم، عارياً حزموه على وسطه خوفًا، أو
شرفناً، بجزوئه نحو قفص المهلكة. لم أر وجهه، ولم أذكره إلا في صورة له. احتفظت بها أمي في قاع صندوق النبات، والصورة الثانية غبشت في يوم كثيب.

نبح الكلب، نباح المستند على مطرح بتذكره، أو يعرفه...

هذا من ضروب المستحيل.

أنا الذي أذكره ولست أنت يا فرد.

هذا بيتنا. بيت أهلي.

ولنتو أدركت أن المسافة التي تبعدني عن تلة سليمان وطني الثاني، تلك القرية النائية في الجرود اللبنانية، بعيدة أكثر من احتمالي على الوصول إليها... لكن كل حنيني فاض في تلك اللحظة إلى تلة سليمان، لكأن المطرح أيضاً تشتك لبعضها، فرددت لو أن كلا المطرحين في مطرح واحد، أو كنا في معزل عن دورات الزمان.

ولي براق يحملني...

203

Twitter: @ketab_n
مهما صدت في الحلم، يشذب الواقع من ساقك المطوية، ويرميك على فاكك. حملت كمضة تراب شمنتها. عبرت عائلاً في السماء طائرة، ترسل إشاراتها الضوئية، مخلفة «عيننا» موجعاً فيّ، يصلني شحيحاً. تخيلت المسافرين الذين على متنهما، ورغبتي لو كنت واحداً منهم... منذ زمن بعيد لم أسمع هدير طائرة مدنية تكسر السماء.
مرة واحدة ركبت الطائرة، يوم عدت من قبرص إلى بيروت... لقرر أن أمضي عمري مع هدى، وتنزوج، ونجيب أطفالاً... هو الشوق، كما ذكرت في بداية هذه الحكاية، هو الشوق خصال الحنين المؤيدة في روح.
بعد مضيّ شهار على وصولي آنذاك إلى بيروت، جاموُوا... جاموُوا.. طوقوا الباب.
سألت هدى من؟ جاويها عن سفرة المدرج كرصاصة في القلب:
افتحي يا شروعة.
هامت لنفعال شيئاً.
خلعوا الباب، دخلوا، حزمني كصرا بباب نومي، وعندما صرخت هدى صفعها أحدهم، برغت بده، فارتمت تنزف وتنجب.

205
كانت ليلة عاصفة، حالكة. لا أذكر إذا كنت تدحرجت على الدرج أم حملت. اختلطت الجلبة بصراخ هدى، بصفير الريح. وتباح كلاب في الوادي. سمعت أبواباً تفتح ثم تغلق، ونوافذ تصفعها الريح. لم يركزوا في مجازاً حتى لسؤال واحد، أو لرجل يمن هدى.

«لا أدرى كم من الوقت سارت بي تلك الآلة، لم تعد سيارة، تحولت إلى آلية غامضة مربعة، تسير بي إلى المجهول... لم أدر بما تصنع... كانت تصعد جبالاً وتحدر في أودية... تلف، وتدور، وأصبح بالدوار بالدوار... وغبت.

صحت، رأيت نفسى مكوبةً خلف قضبان على أرض رطبة، جدران ملطخة ببقع الدم... بروح وبيجي أمامي شبح، لم أر وجهه، أرى نصفه السفلي... حزام وحذاء.

ظنت أنى في كابوس، أو في حلم مفيت، ولكن عندما تلمست وجهي ورأيت الدم على راحة يدي أدركت.»

۲۰۶
... وعلمت أن رحلتي في هذا الحضيض الدنيوي الرخيص،
ستطول... وتعلمت في نفسى أوجاع وفي بدني جروح طريقة...
ربما مرّت على ثلاثة سنوات أو أقل بقليل، يوم حملوني ثانية إلى
شاحنة معصوب العينين. كنا أربعة رجال مكبلين الأيدي والأرجل
بجزر واحد، رمونا بنا كمواش نافقة في صندوق الشاحنة. تعترنا
وسقطنا كحطماء، ركنا وأصبت الأحذية ووجها. خنقا أوجاعنا
في صدورنا الهشة، وسارت بنا الشاحنة مسافة يوم كامل. لا أدرى
إلى أين، لا أرى شيئاً، سوى إحساسي بالضوء. وأنا سام، تخترق كؤس
الشبك في الشاحنة، تسقط على جهتي، أو يدي حيناً، وتبكي، تنحيل
مسارها، أو توقع عاريةً بنا نحو الخلاء. ترسبت قناعتي بذلك، بعد
أن تضايق الأصوات الخارجية، وبدأت حركة المركبات والسيارات
يتخفى إلى أن اختفت نهائياً، وأتي صوت محرك الشاحنة يجرع وحيداً
وبطرق صمت الخلاء... يختلط أحياناً بسعال جاف، أو بنكات ناعمة
من الجنود والسائق.
 كنت أشم رائحة عفن بشري، وقبح جروح، يمزج رائحة دخان
الشاحنة الذي يلف ويدخل من الكوع، ودخان السجائر، رائحة تنفد
إلى أمتعتي، أفتجال، وأمام بعدي نحو الهواء الذي أنفسسه يدخل من
الكوع.
 كان السائق طوال الطريق 'يكручك' ماء، وينفخ حلقي. عرفت أنه
مصاب بمرض الكلى، توقف مرات ليبول، فيسخ منه مراقبته، ربما

207

Twitter: @ketab_n
كانوا الثلاثة. قدّرت ذلك من أصواتهم، كانوا يتعلمون بكل الفستق.
عرفت ذلك أيضاً من رائحته، راهنة الفستق نفاذة.
وكانوا يتبادلون حديثاً عن ضابط أحمق، يشعوه صفاً وإهانات.
خططوا لقتله وفشيلا، ثم راحوا يتذكرون بطولاتهم، وهي من النوع
الدنيء الذي لا يستحق أن يبتكره إنسان، كسرقة بيت في الجيل،
وايئستهم في العاشرة من عمرها. جيابية منظمة على حاجز في
السهل، يتقاسمون غائمهما مع الضابط نفسه الذي له الحصة الأكبر.
وحكايتهما طالت عن الراهبة التي أقافوها إلى الأحراج... لا أريد
سماعها، ولا أريد أن أعرف كيف تناوبوا على اغتصابهما، وصليوهما
على جذع شجرة الصنوبر بعدما انتهوا، وشاهدوا أحد الزعبي يفكها،
ويحملها كخربشة مبللة. ويركض بها في الحرج صارخًا، فأطلقو عليه
رصاصهم... كنت أحاول أن أضغط براحتي على أذنيّ ولكن لا حيلة
لدي، يديء مكبلان... تميت لى كنت أضم. حاولت أن أطبع على
رتبة هدير الشاحنة، أو أن أصاب بشيء، ما لأنفصل عن العالم، عن
هذا الحضيض، تحولت أصواتهم في مسمعي إلى استغاثات فتاة وإلى
عويل نساء، إلى تعزيق لحم بشري، وطحن عظام، لكان رحي تدور
في راسي، ونفدت إلى أعماقي تلبية تخرج من جوفهم وهم يطلقوا
قمهاتهم، التي تسيرب من الشبل الفاصل بيننا وبينهم في المقدمة
جانب السائق.
وصلى...

208

Twitter: @ketab_n
قال أحدهم، تحديداً الذي كان يتباهي بعملية سحل قام بها، حين
ربط إلى سيارة الجيب، شاباً وجره في السهل، بين سنابل القمح، لأنه
مرّ صورة الرئيس عن جدار دكان الخلافة.
وصلنا إلى الحدود. قال، تلك الشاحنة الأخرى تنتظرنا على
اليمين...
التوصيات؟
عرفت الحدود من رائحتها، هي مزيج من رائحة الأجسام البشرية والإناث، والبيض، عرفتها من اللهجات وأصوات حرس الحدود، وقُدِّرت شيئاً آخر، أنهم يعودونني إلى بلادي إلى حيث هزت مع أهلي منذ سنوات، ولكن بالتأكيد ليس إلى دياري... عرفت هذا من لهجة أهل البلاد.
وأصبح تقديري قبلياً، عندما طلب من السائق أن يتراجع إلى الخلف ليلتحم صندوقا بصندوق الشاحنة الأخرى التي تنتظرنا، لكي يتم عملية التبادل، بدون حلبة، أو مخاطر محتملة، وتحاكيًا للفضول الناس.
أي تبادل؟ بماذا بنا بنا هؤلاء؟ كانتنا بضاعة مهرة. تراجعت الشاحنة، يتوجهات من الخارج، يمين، يسار، ارجع، ارجع. تمثل عملية التخلي الصندوقين بارتكام خفيف هزنا.
المطلوب أن نجر أقدامنا واجسادنا بهدوء، لندخل صندوقاً آخر.
وبموازاة حافة الصندوق كي لا نصطدم ببدلاتنا. شممت رائحة بدلائي الذين فعلوا ما فعلناه تماماً. أصوات الجنائز تقرع على حديد
الصندوق، وتحرر خطواتنا. احتفظت أجسادنا ببعضها عند الاتقاء، بفوضى أحاديثنا تعر الخطي وتقل اليدن الجدر، شملت رائحة أجسامهم وعرقهم وأنفاسهم الموحية بالجروح والعطش.
وبددت بجرحة، لو نشط عصبة عيوني، لأرى وجهه هؤلاء الذين مروا بي.
خف خفقي.
تمت عمليةتبادل.
انكسر شيء عميق في داخلي...

انطلقت الشاحنات باتجاهين معاكسين، وانطلق خيالي نحو المجهول...

لم يتبدل شيء في الداخل، سوى اللحظة، لهجة السائق والجنود المرافقين. أما في الخارج، فكان التبدل يحدث دائماً بعزل عن مشاهدته لي. كنت أحس وأسمه. سحرت هاتين الحاستين للفصوص عما أنا فيه، وعن أحوال العالم، عن قاعه العفن أو عن هوائه القائم في أديته. علمت أنا نسيب في الطريق الصحراوي... هواء الصحرااء بدأ ينفذ من فتحات الشبك إلى أعماق الروح.

أعرفه جيداً.

لقد انتقلت به الرئة من زمان... منذ الشهقة الأولى يوم ولدت، وتشقته لأكثر من سنوات ثمان، قبل أن تغير الأوطان ويغير الهواء والأحوال... تشقته في وادي الدموع...

212

Twitter: @ketab_n
لهجة السائق وجعس الساحنة، وهواء الصحراء، فقت أوجاعي
العتيقة، ذكرتني بذلك اليوم الذي حملتني فيه ساحنة عسكرية،
حملتني وأهلي في عملية الهروب، بعد مقتل أخي مهدي، وربما
عبرت بنا الطريق ذاته، قبل أن نصل إلى الحدود، لتحملتنا الديلال إلى
 ثلة سليمان.

الهواء الصحراوي ينفذ إلى رئتي ببضعه، هواء الليل.
أعرفه...

أحسه.. راحته مشبحة بعطر عشب السدر وفجره...

السائق يغني، ليكر، أو ليغب نعاسه.
لمشي لكم في الليل يا عيني يا يابا
يجبه الجند: هني على شيء
وإن تعبت الرجلان يا عيني يا يابا
لمشي ع لدیا...

يضحكون. يتهدوون. ثم يأخذهم الصمت الذي يفتح الهدار في
جداره جزأ، يلتحم للنحو خلفه ولوصل كثافته...

ويعاودون من جديد الغنة...
لون خمري لا سواد ولا بياض...
مثلي بدر الدجمي وأشرف ع. الرياض...
وتأتيك يغطون في الصمت. ويتحول هدير الساحنة إلى رابية تشي
بالمناة...
تسلوا بالغنا، ثم تسلوا لنا، وبأسئلة، غير مكلفين بها. ولكن من يمنعهم من طرحها؟
- سأل من متكم فلان؟
- أجبه أنا. فضحكوا.
- هذا أنت اللي شاغل الحكومة؟
- لم أجب.
- تخيلناك أضخم جHEMA. يقالوا إنك خطر؟ سكت. لا أعرف ما هو الخطر الذي أشكله، بمفردي، على عالم لا
- أملك فيه سوى الكلام...
خفت، واختلط خوفي بشيء من السخرية من نفسي، عندما علمت أن زعيم حزب، مناوئي، يخطط لإطاحة النظام، من وادي أبو جميل في بيروت، وبالطبع أنا لسته على الإطلاق.
ربما اسمي المستعار؟! كل أسمائي مستعارة. اسمى القديم دفن في وادي الدموع.
عبد الجليل الغزال.
هنا حفيد أنا الآن... أستعيد ذلک اليوم المشؤوم...
على بداية الفجر، دخلت الشاحة البوابة الرئيسية في السجن الصحراوي... هناك، فكوا عن عيوني.
ورأيت ما رأيته.
النسيدان نعمة ليتها تدوم...

نبي فرند.

نبيتي إلى عالي القديم، حملني من صندوق الشاحنة إلى بيت
أهلي، دفعة واحدة. وكان الذكرة أثيرة تضحك للتو حيث تشاء،
من ماضيتك، وفضيء مطارحك وذووك، حتى لو كنت مصوص
عينين. تفتح ثقباً في العصبة السوداء لتنقذ صحته، لتسقّص منه، ولتعرج منه ما تود
أن تراها... وكأنك ترى...

وجدتني جالساً على حجر من حجرة بركة الماء، أحرزك بفرع
يابس من سعف، التراب...

قلت تلك النافذة من ذكرتي على مشهدتها الأخير، وتفكرت بما
يشبه أن أقوم به اليوم، الآن.

هل نفسني وحمل عطر لا أعرف مصدره، عطر شجري بري، حرّك
في روحي وعول الوعامة، فتنوهت. ودخل الهواء إلى رئتي، مثل ماء
يتململ في تربة معفرة يابسة.

انتمائي القديم إلى هذا المكان، حرّض في نفسي رغبة الحياة.
فالآرض التي سكنها البشر، حتى في حالة هجرها النهائي، تبقى فيها

215

Twitter: @ketab_n
موادتة لمراولة العيش، قد تعر علّيها في الزوابا، فوق العتبات، أو بين الصخور، في بحر، أو في سفح الجبل حيث كان يتدفق الماء، أو في صندوق متروك في الخراب، أو تحت حجر الزاوية...

عندما وصلت إلى هذا اليقين، صدمت من تحولاتي أو من تفاصلي. أيقفل الذي خرج من موعدي ومشى دون غابية أو هدف واضح، هو أنا الآن، يخطط للبحث عن وسائل للمكوث، والبدء بحياة في أرض لا حياة فيها؟

ضحكت، واستنعت بسلاحاً، هو المسعد على الاحتمال:

التهكم.

وبخت، كما أهل الهواء في مناهههم.

نتح كلي.

أرائه، مسروب الأم، عندى بدأ يعلو إلى حد مضحك؟ ولكن في الأساطير والحكايات ينبغي لكل منا، وجود أنثى كي تعيد دورة الحياة المتوقفة هنا... بالنسبة إليك، أعلم أنك مختصر، فعليك ذلك السافل. أما أنا، فالأمر الذي فعلها بي، هو الزمان. أضيف إلى التلف الذي أصاب دودة الظهر، وسبع عرجى.

على كل حال، قبل أن أندرب أي أمر بنية البقاء أو المكوث هنا، لو وقت بطول أو قصير، سأصعد هذا الجبل ثانية مع بزوغ الفجر، هناك أستطيع أن أقدر ماذا ينبغي أن أفعله، لعل القمة تلهمني سبيل ما من خلال إشرافها على المدى وقوتها من السماء...

٢٦٦

Twitter: @ketab_n
وافكرت أن من الأشياء التي أنوي تحقيقها، الحفر على صخرة عالية: اسمي، وتاريخ مولدي، وأنثى بأن كلما كان برقي، كان مفترسًا عند السجن، وصار صديقًا للسجن. ربما يأسد ذلك العابرون هنا إن عبروا. لغاية التفصيلي، أو في شنات ما، لقوم يطردون من بلالهم.

لا أعرف، تحدثاً، ما هو الدافع الأعمق من هذه العملية الشاقة التي تستدعي وقتاً، كتلك الحكايات القديمة المحفورة على جدران الكهوف بمرور لا يستطيع حلها وفهمها... ولكني سأختصر قدر الإمكان من حكاياتي، ساكتفي بالجوهر منهما... ربما الدافع من كل ذلك هو رغبي في أن أحدًا ما ذات يوم، يعلم ما حلّت بوادي الدموع ما حلّ بأهلها، وأني واحد منهم، وإذا ما انتهيت، يعلم أنني انتهيت هنا.

لا لرغبة نقل رفائي إلى مستشفى رأسي، فهذا هو مستشفى رأسي يقيناً، بل لرغية أن يبقى شيء مني غير الرميم والزوال. ثم لا تنذ بآفرند، أنني شاعر، وغالباً الشاعر لا يرغبون في الفناء، بل يطمحون لتحليماً ما يستكثهوه.

الناس جميعاً هكذا.

ثانياً...

لاحظت أنني بدأت سلوك الخطابة. وكان حشداً يصبحي إلى قرارات حاسمة سأتخذها، ومصيره متعلق به!!

لاحظت أنني أفرند أنتي أخطب؟ ماذا تريدني أن أفعل، لو عثرت على ماء، وبدأت حياة زراعية كما أسلافنا القدماء؟

٢١٧

Twitter: @ketab_n
ماذا فعل بما يبقى من الوقت، بعد تأميبي لتلك الحاجات اللعينة

لي ولك؟
عليّ فعل شيء آخر لأقتل الوقت. خرج فعل القتل من حليقي،
كالسهم وانطلق. مردأ عليّ يراود إصابتي في الموضع الأدق.
أعلم أني والوقت في مبارزة ومنازلة، وهذا توصيف للفعل إني
مهما فعلت خاسر. وأردت تلك العبارة الحكيمة دائماً: أشد الأعداء
فتكاً هو الزمن...

وانتظرت إلى كابي.
وأنت ماذا ستفعل عندما أكون في همكة الحفر. ستلازمني
وتتفرج عليه، لم تخلق لمزاولة مثل هذه الأعمال. تتفجر علي وأنا
أكد في الصخر، تأمل بعينيك الزائنين في الأرجاء المترامية الخالية
والمهجورة، وتطلق نباحك المجاني.
عليك أن تعلم: أنت أيضاً سوف يصيبك التلف الذي يحدثه العمر.
ولا يفترض أن يربط مصيرك بمصيري، وأنا كما ترى على حافة
زواياً...

ألا تذكر مسقط رأسك والبلاد التي أتوا بلك منها، وكنت صغيرةً،
جرياً خساعا، تغمر في بولك، ولا تجيد النباح جيداً وتتعلق بأنداء
أمرك وإخوتك ملك، ونسمل منك ومنهم...
ألا تذكر شيئاً؟
هذا مؤسف ومحزن؟

٢١٨

Twitter: @ketab_n
لبنيني أعلم إن كنت تفهم ما أقوله، أو تذكر شيئاً مما حدث ماعنك من أبي وأبيءك وأبين نسيء... هل يراودك الشعور بالانتقام من الذي حوّلك مرة إلى وحش؟ أم انت مسامح؟ رابعاً:
لا أعرف يا فرند، انتابني نوبة الخطابة. تبدو هذه الخصال متأصلة في القسم، ما إن يجد أحد منا الآخر يصيب حتى يبره روحه كمثير ويداً... أولاً وثانياً وتالياً... حتى لو كان (أجلك) كلباً... غريب، الذي في هذه الطباع أو الخصال اللغوية. ما إن تتاح فرصة لأحد حتى يظل نفسه الحجاج بن يوسف، يحتشس سيده ويبدأ هياجه اللغوي...
خامساً:
إني أماتبحك، وأمارة روحي ليس من حامس ولا من أول ولا من آخر. تراني أراوح في هلوساتي، مثلما أراوح في مأزقلي. أتحابل على إيجاد مسارب للخروج فأترحل كحاجر يتدحرج من السفح نحو القاع، وأترنح قبل أن أهدم لأرفع رأسي. سمائي بعيدة.
غداً سأبداً بالبحث عن عدة للحفر، وسأعفر معظم هذه الأنكار من باب التسلية. فقط أريد أن أجد سلوة أخرى لوحشي، غير استعادة الماضي والصور، وغير الأمل... وفي الوقت نفسه سأبحث عن الماء.
وغالب ظني، سأبدأ بالبحث عن الماء لأن مائي أصبح على آخره...

القمر أعلن أقوله.
وجافاني النعاس. تمتدت وسط البار. جفا قريبا فرند. رفع رأسه
 نحو القمر وأطل النمن في أي، صار يحرك رأسه بيمنة وبسرة، لكنه في
 حالة من الشكوك في ما تراه له أو شاهده، وما الذي يشاهده في فلول
 قمر متناقص؟
صرت أراقبه، أمتنع ذكاه. ولفتني في السماء سرب من الطيور
المهاجرة، ما كنت أدرى أن الفجر قد بدأ بالنسبة إليها في هذا العلو،
وتابعت من مكان ما هجرانها...
الأمنة وإن هجرت طويلاً وأصابها التلف، تبقى تحفظ بود لأهلها.

وأنا واحد من أهل هذا المكان، شعرت بسماحة من السلام عبرت جسدتي، وأنا ممدد كجذوع من تلك الجذوع التي هوت بعد عناد طويل مع الوقت والريح والاهتاء، لتسريخ في عملية التحول وعودتها إلى ترابها.

لمن أفلح بشكل واضح في تذكر الصبي الذي كتبه في حدود هذا السور المتداعي، بمقدار كاف يجعلني أعيد رسم ملامح له، وهو يلهو مرة بسغف النخيل. لكنُّ تخيلت أنني فعلت ذلك كثيرًا. وكان أبي نهريني كي أكف عن اللعب، كي لا أصاب بالحتمى تحت شمس النهار...

وان أمي كانت تحشر وتخنيف رأسها تحت عبواتها، عندما نزور الأقرباء أو الجبرة، أو تحققلي سعفة أحمي بها من سعير الشمس، ونحن نجوب الأرقا. وعلل ذلك هو الذي دفعني إلى أن أقصف من شجرة السدر "تبرونا" للذكرى.

صرت ألهو بتأليف صور ومنتظر للفن، صبيًا في بلدتنا الأولى،

221
وأهرب بتلك الصور من أسئلة تلح عليّ، أهرب من التفكير بما حدث في هذا العالم في غيابي لأكثر من ربع قرن. كانت مقدري على التحليل تشير إلى أحداث لا بد من وقوعها، ومراكز معلوماتي الوحيد هو سوء طبي بالعالم الذي عشت فيه. ثم حكايات رفاقتني في السجن، وانعدام أملي بالموضوع الإنساني، كانت وقوداً يدفع عرية أفكاري نحو التنبيز. فلذي حدث في غيابي، بالتأكيد هو أسوأ من الذي حدث في حضوري.

لا أريد أن أعرف، فليست لنفسية، فهل أسوأ من هذا الهجر في وادي الدموغ، مدينة الجسر، التي لا مدينة فيها سوى الجسر...؟

احترقت أسئلي ورغبتي في معرفة ما يدور في العالم ونبحث...

ثم استسلمت لنسائم الفجر التي بدأت تحرك أشياء أخرى في نفسي، وهي نور على وجهي كحريص اليوم، وأكثر ما كانت تحركه هو الشوق، أو الحنين للذي كنت هنا قبل سنين. والحنين موجع، موجع ويستدعى ذكرى عميقة، وحدها الممكنة فقط، وسواء ذلك، عالم من الفقدان. وأعتقد، لو أن ذلك الهبوط من الحنين، يسيطر على النفس لوقت يطول ليشكك به، ولكنه يروح ويجيء كما حركة الهواء.

صرت أهلو بتألق صور عن أهلي، في أسئلتي يجتمع فيها الربح، يتشاورون في مسألة الزرع، أو يتحدثون عن شيء آخر، لا أفهمه. كانوا يرتمون في كلامهم، ويطغى على وجههم صورة واحدة.

٢٢٢
محفورة في بالي، يوم مشينا في فجر مشابه، مشت البلدة بكاملها لمشاهدة مصرع أخي مهدي، هذه الصورة، كنت دائماً أحاول استبعادها، أو دفعها إلى النسيان المؤقت، أو أحاول تأجيلها ولكن دائماً كنت أقع أشعرها.

كنت قد كتبته عنها كثيراً في أيام بروت، كنت ومرضت أوراقاً كثيرة، لأنتظمر منها أو لأبآها. وقد تركت منها الكثير مع هدى، هي بالتأكيد احتفظت بها... وكم كانت تشفق علي و آنا أتعثر في وصف ذلك اليوم الذي سكنه "يوم النصر" وظنته ودعاً من أعياد البلاد، قبل أن ألحظ على وجه أمي خيوطًا من الدمع تسباب وتساقط كالدلف على وجهي، وآنا أتمعن في عينيها لأعرف سبب بكائها.

كلما لاحظت في بالي هذه الصورة، أول ما أراه أي وجه أمي وهي تشد على أصابع يدي براحتها كي أكف عن أستثني ثم توقف الوجه، والقامات الحانية... تركت الكثير من هذه الحكاية على الطاولة، لمصلحتها هدى بالتأكيد وخيانتها.

لكنني أحست الآن، بدموعها يسقط على وجهي وحيرتي...
أحمر الشفق.

تنفس المدى الصحراوي سامه، وتناءب الجبل الطائر.

ألا تسام الصحراء من اجترار عزلتها وتكرارها؟

سؤال سخيف. لنقو، أدركتي أن أسقط أحاسبتي على هذه الأبدية. ولدت: دعك يا بني آدم من هذه الأسئلة وافتكر بما أنت فيه. أنت الآن في مسقط رأسك، تقف مع الفجر ما بقي من أثر وظل.

وأطياف، وأفاس المليمين رحلوا.

فعلت ذلك.

لا داعي للطرق على الأبواب. الأبواب مشرعة لاستقبال العدم،

وأسيء الزمن، والنواهد بدت محاجر عيون هذها الإنتظر...

لا شيء هنا في بيت أهلي.

إن صبح تقديري، فقد وُلد هنا في هذه الحجرة التي تطل نافذتها على الجبل، سجحتها "القابلة" آمنة، على مهل من رحم أمي، وصفعتي على قفاي وهي تحميلي باليد الأخرى من القدمين كفروج، فصرخت صرختي الأولى، بعد الصفعة الأولى.

٢٤٥
لكم كانت صفعتك يا آمنة رحيمة.
أدخلت الهواء إلى ركني...
تنشفت مقداراً إضافياً من الهواء...
zفرته مشبعة ومحمومة بالحسرات...
قالوا لي إنني بكبت كثيراً في شهرني الأولي. أظهر اليوم، هو
بمثابة البكاء الاحتياطي الذي صرفته، أو بكاء مقدماً على الحساب مع
صوره الدهر، أو عروِناً للأوجه القادمة. على كل حال، قالوا إنني
بكت كثيراً في شهرني الأولي، وكتبت أفك عنه حين أُبِّل إلى هذه
الناقة المطلة على الجبل الذي تناوَى من خلفه الصحراء وغوي في
التيه.

يومها تذرت أمي للجبل الطائر خروفاً إن خف بكائي.
وبرئت.
 عبرت السماء مسحابة...
فرٌ من روحٍ طير نحوها...
من هذه الناقة رأيت العالم للمرة الأولى، وتدرب سمعي على الغناء
الذي كنت تبداه الرياح في مراسم جنازات كونية. ولعلّي في ما بعد
اكتشفت سر محزون الحزن الذي في غناء جدني.
في يومي الثاني في وادي الدموع، احتفلت الطبيعة بعودتي نافصةً إلى أرض ناقصة وبلاد مهجورة. هبطت ريح الشمال ودار الغناء في القمة العالية... شدني الصوت ملماً شدني صبياً إلى القمة...

وشاركت الفجر جولة استطلاعي على عالم مهجور متروك للنسبان. تواصلت مع نفسي ومع كلبي، أن نحاول العيش في هذا الخراب ولو لحين. هبطت إلى السفح حيث قاع الوادي، رأيت في اتلاجات الصخور، نبتاً أخضر، سمعت كريرة ماء.

ما رأيته كان أكيداً، ولكن ما سمعته بدأ لي تهيؤات. إنه جريان غامض للماء في جوف عميق، وليس من ماء واضح.

ترجمت فروع باستثناء في بدني. سنغدت رأسى على ارتفاع بلالية صوانية. أحستس بالماء يجري تحته، أحستس رأسى يراحتي باحثًا عن بلل أصابته لا شيء.

فرمت رأسى على الأرجل وأضفت.. أضفت لفولاً، الماء يجري في بطن عميق.

هو صدى النهر.

٢٧٧

Twitter: @ketab_n
صدى جريان قديم، أم هو النهر الذي حوال مجراه؟
هل هي الحكاية؟ يا جدتي؟ حكاية النهر الذي غمر مجراه إلى الأبد.
بعد غضب إلهي على القرية التي جحد أهلها بنعمة الماء؟
ما سأرى هذا النهر الذي يتفجر على فشح الأرواح البشرية، مثل تفشي التراب في مجري النهر، وهي تمشي نحو السراب وتبني كشجرها؟
فشي العطش أحسادها. فارتعش على وجوهها تلعق الرمل...
ما هذا النهر يا جدتي؟ ما هذا الخيال؟
لكم ظننت يا جدتي أن حكايتك في تلك العشيات، هي من صنع خيال محبا ي، من أجل النعاس والنوم، على عودة النهر عند إشتيقه لمجريه القديم؟ ليست حكاية نومنا القديم. هي حكاية البقطة المطلقة...
... وعن تسأل. تروي جدتي
كانت الطيور تأتي في مواسم التزاوج من أوطانها البعيدة، تقيم طفقتها السماوي، عند الجبل الطائر حيث تمتد غابة على ضفتي النهر... وتمتد بعيداً نحو هضبة الدغول... تحوُّل سماء وادي الدمو، وشجرها إلى عرس صاحب الغناه، يصبك بعدها ناس البلدان، فيقيمون أعراهم ويختلط الأراضي السماوي، حتى يظن من يعبر في هذا العالم أن الأبدية تقيم زفافاً لنعمة الحياة.
وتدور الاحتفالات والهرج والرقص والغناء على مدار سبعة أيام، يشارك فيها مئون الجبل الطائر. يصعد النساء والرجال إلى القمة،

228

Twitter: @ketab_n
يبدأون في الكهوف مراسم الزفاف. فتكبر من مخابئها الفراخ وتحرك في الزرقة وتعثر في طيرانها فلوذ بأعشاشها فاغرة منقارها، مذهولة من فرح كوني باختها...

بعد كل موسم كانت النسوة ينزلن أطفالهن للجبل، ويسهلن البخور.
في كهوفه، لكى يأتي الموسم الآخر خصباً، والماء دافقاً.

هي مواسم أبدية، بدأت مع النهر، وسهل الدغل والجبل الطائر.
ربما قبل أن تقوم وادي الدموح قريبة للرعاة، أو مطرحاً مأهولاً. لا تاريخ لها يحدد بدايتها. ولكن هناك تاريخ حدد نهايةها، يوم قرر الحاكم تخفيف ماء النهر، وتحويل مجرى. حين جاءت الطيور في موسم آخر في هجرتها إلى وادي الدموح لتقيم عرس الطير، لم تجد الغابة، لتحوك أعشاشها، ولا شجر النهر ولا ماء، زاغت في الفضاء نحو سهل الدغول. لا شجر هناك، لكان أيادي من فروع هائلة تكفلت بإيادته كل ما هو شامخ ودائم الطير، أو الإنسان.

تاهم الطيور في فضاء وادي الدموح، نائحة، مطلقة عولها...
تروح وتجيء، في المدى السماوي هيلهل، تهوي بأسرابها نحو النهر، لا ماء في النهر... فتعود التحليق بفوضى الشتات التي يسبها الهلع والخوف والدعر من المجهل. تدخل وتخرج من كهوف الجبل، وتعود الدوران في مناهة السماء... إلى أن بدأت أسرابها تتهاوى من التعب تحظى بأغصان بابسة. أو في كوي جدران البيوت وعلى ضفتي شجر النهر المبتور. امتلأت وادي الدموح بالطيور النافقة، منها

279

Twitter: @ketab_n
ما مات على الأغصان الباسسة أو في أعشاش لم تكتمل، ومنها في قاع النهر، أو داخل البيوت المهجورة، لم يكن من أحد هناك ليشهد موت الطرير وفناه.
كان قد عمّ القرية الغناء سابقاً، قبل عرس الفجيعة الأخير، عرس الطرير.
لذلك سَمَوها يا جدتي جبال الغربان؟ صارت موطناً "لغراب الينين"، والكواسر التي تقنات من التنفس البشري، ومن بقايا الطيور المهاجرة؟
صارت محطة في مناهتي، لم أخطط حتى للمرور فيها أو تفقدها كمسرح للحكاية. ولكنني، لكي يكتمل جنوني، أو شقائي، حملت حملاً إليها، ليزيد حملي.
لا شيء.
لا شيء في بيت أهلي. حطام أعشاش للطيور في الكوى ذكرتني بمواد أعراسها. كان الطير أقامها ومات قبل أن يأوي إليها. تضع فيها الإناث بيضاً... وتخليت الهلع الذي أصاب البشر، حين دنا من شجرة المفتقد وهب صراخاً... منتحراً على جفاف عالم مهجور...
لا شيء...
آنية صدقة تخصي لتراثي عزلتها، وبقايا رماد في موقع النار في حجرة الطيور.
لكأنها مصيدة، أو فخ آخر نصب لي، فحورت ما بين الإفلاس منها.

230
والpunي في سبيلي، إلى فتاني أو بين البقاء في فتاني، أو البقاء في البين بين.
أكلت حجة ربركت النواة في فمي، ورحت أجو في الأرقه والحارات، أدخل في بيت وأخرج من آخر، لا يتوقع دفعني للقيام بذلك، أو لغاية البحث عن عرض يسعني، يسعف احتمالي، بل لشيء مجاني يشبه مجانية الاحتفاظ بنواة النمر في الفم لوقت طويل.
هي حكمة صحراوية.
أصبحت بعد وقت من التسكم الذي زاده عرجي ببطأ خارج البلدة، وراتي الجبل الطائر بشموعه الأسديوري.
تراي لي في المدى التماس معدني مبسط وطول، يظهر ويخفي في التماساته على ذلك الضحي، مستقيم وحاد كجرح أسود في جسد الصحرا.
وعوى في مسمعي صدى صوت آخر عتيق كان ينطبعي أيام طفولتي، من النجار لاجري طويلًا خلفه، أو بمحاذاته وصبة أشياء، في غيابات أيام بعيدة، كنت أقف على سطح البيت، وأتابع فلوله وهو ينثى دخانه حراً أسود يشاد وراء ويتلاشي تدريجًا، ويغيب في الأفق يغيب الصوت سمعه.
إنه القطار...
كان يترك في نفسى رغبة ما، ونوعاً من القهر، صار لاحقاً نوعاً من الشجح، والإحساس بالفراغ...
وزاولت عرجي...

231

Twitter: @ketab_n
أحمد علي الزين إعلامي وروائي لبناني. عمل في الصحافة المكتوبة والمرئية والمسموعة منذ أواخر السبعينيات. ومنذ 2003، يعدّ يقدم البرنامج الثقافي «روافد» على قناة «العربية». صدر له في الرواية «الطبيون»، و«خريبة النواح»، و«معبر الندم»، ونصوص مسرحية بعنوان «رؤيا...».
تنجح في استدراجنا إلى مواجهة مكشوفة مع أنفسنا كما مع الواقع العربي الغارق في عتمته وخوفه.
شوقي بريع، "السفر"

نص روائي جميل ناضج ...
يضعنا على حافة التذكّر وفي قلبنا.
سلمان زين الدين، "الحياة"

في هذه الرواية – القصيدة، يذهب أحمد على الزين بعيداً
في تعميق رؤيته للوجود والعالم، وصقل أدواته الفنية التي يأتي
التأمل في مقدّمها...
سيف الرحمي، "الانخاد"

حكاية تقدّم رويدياً وتستفي من مضيها الكثير.
رئي راشد، "النهر"